كتاب النبراس
ANIBRASSE
1
يوليوز 2005
سلسلة تصدر عن جمعية النبراس الثقافية - وجدة

أسئلة
الفكر والمنهج والفعالية
في تراث مالك بن نبي

بمناسبة الذكرى المائوية لميلاده(1905-2005)

تأملات في تراث مالك

بن نبيفي ذكراه المائوية1905)-2005)

أسئلة الأصالة و الفكر والمنهج والفعالية

(لقد كان السلفي وحده الذي يمثل فكرة النهضة ،
وهو وإن كان لم يحقق شروطها العملية بصورة منهجية فإنه على الأقل لم يُضِعْ هدفها الجوهري)
مالك بن نبي

****

بقلم: محمد البنعيادي

تـقـديـم

يشرف جمعية النبراس الثقافية أن يكون أول إصداراتها الرسمية بعد أكثر من عشرين سنة من العمل الثقافي كتابا حول المفكر والفيلسوف المسلم مالك بن نبي في الذكرى المئوية لميلاده.

ويسعدها كثيرا أن يكون هذا الإنتاج المعرفي من إنجاز أحد أبنائها السابقين وأطرها الباحثين الذين تتلمذوا على موائد فكر مالك بن نبي في رحاب ندوات ومجموعات بحث الجمعية وهو الأخ الكريم و الصحفي النشيط الأستاذ محمد البنعيادي .

إن تجديد الصلة بين **مشروع الثقافة البانية** لجمعية النبراس والميراث الفكري لمالك بن نبي و مشروعه في نقد مشكلات الحضارة من خلال فعاليات إحياء الذكرى المئوية لهذا المفكر طيلة الموسم الثقافي 2005، والتحضير لعقد ندوة دولية حول الموضوع، هذا التجديد للصلة ينطلق من زمن ميلاد مشروع الثقافة البانية على صفحات الأعداد الأولى من مجلة المشكاة ([1]) من خلال مقالات الدكتور حسن الأمراني الرئيس المؤسس لجمعية النبراس سنة 1982 . هذه المقالات التي حملت الكثير من الرؤى الثقافية في مقاربة المشروع المجتمعي على منهج أصالة فكر مالك بن نبي وفعالية منهجه.

[1] مجلة ثقافية تعنى بقضايا الفكر ومتخصصة في الأدب الاسلامي، تصدر من وجدة/المغرب، يديرها ويرأس تحريرها د.حسن الأمراني رئيس المكتب الإقليمي لرابطة الأدب الاسلامي العالمية بالمغرب العربي

هكذا كان أول الفعل، كلمة على صفحات مجلة المشكاة، وكان لابد أن تكون هذه الكلمة فعلا ثقافيا تحريريا مساهمة في مشاريع تجدد ميلاد المجتمع. فكانت مؤسسة النبراس مشروعا ثقافيا بناءا ومشروعا اجتماعيا مسؤولا مشبعا بالمنهج القرآني الرباني والكثير من رؤى و أفكار المدرسة البانية.

لقد كان تعاملنا في بداية مرحلتنا الطلابية مع كتابات مالك بن نبي اكتشافا لموسوعة معرفية متكاملة المنهج و المصطلح والمفاهيم والفكرة. و أذكر مع المؤلف محمد البنعيادي كيف كان اكتشافنا لكتب مالك بن نبي بمثابة اكتشاف لموسوعة فكرية نقدية منهجية متكاملة تخاطب الروح والعقل معا، تستدعي التراث والغرب كليهما، ليس بمنطق المحلي و الوافد بل بمنطق الصالح و الطالح.

لقد كان هذا الاكتشاف بمثابة مراجعة للكتابات الدعوية و الحركية السائدة آنذاك (سعيد حوى، فتحي يكن، محمد قطب، سيد قطب...).

لقد كان الخيار السياسي وراء هذه الكتابات الحركية حاضرا و مهيمنا ، وكانت التجارب الحركية سقف الذين فقدوا القدرة على الرؤية نحو المستقبل و الأفق في زحام الصراع والمحنة، فكان مشروع مالك بن نبي مشروعا فكريا اجتماعيا مستعليا على صخب وصراخ البوليتيك ونظام القابلية للتبعية الذي وضعنا فيه الاحتلال.

لقد كانت كتابات مالك بن نبي -كما يبين الأستاذ البنعيادي من خلال بحثه- تفاعلا مع الواقع وحاجياته وتنظيرا لحركة الإسلام في العالم لا لحركة من الحركات أو اختيار من الاختيارات .

لقد كان فكر مالك بن نبي أكبر دليل على تهافت أصحاب فكرة التأويل الحداثي للإسلام أو ما يدعونه ضرورة الحركة التنويرية للإسلام من وحي الغرب وتجربته، فقد كانت أفكار مالك أفكارا قرآنية أصيلة أعطاها قوة التنظيم والفاعلية و التركيب المنهجي، مما جعله شاهدا حتى على أولئك الذين حنطوا الإسلام في تجارب حركية

بوليتكية أو صوفية فقدت ذلك الشعور العظيم بالإسلام كنظرية اجتماعية ،كما اكتشفناه مع كتابات مالك ابن نبي وارتضيناه مشروعا لجمعية النبراس تحت شعار:

" نحو ثقافة بانية ومجتمع مسؤول ".

وأذكر –ونحن نعد الورقة النظرية لهذا الشعار سنة 1993 تحت عنوان ميثاق الثقافية البانية– كيف كان لعالم الأفكار الذي رسمه مالك بن نبي دور مهم في تنظيم حلقات هذه الورقة وسهولة حمل مصطلحاتها للكثير من القضايا التي شكلت مشروع الجمعية (مصطلحات الأفكار : الموضوعة – المخذولة- الميتة- المطبوعة ...) إن على مستوى ورشات البحث أو نوادي الأطفال و الشباب و المرأة وغيرها من المجالات الاجتماعية ،كما أذكر كيف كان إصرار الأخ البنعيادي على ضرورة الإشارة إلى مرجعية هذه المصطلحات لصاحبها مالك بن نبي رغم أنني كنت آنذاك أحس بـــ(ملكيتي) لذلك المعجم و بضرورة فتح الآفاق أمام هذه اللغة القرآنية الاجتماعية الحضارية حية بعيدا حتى عن صاحبها، لأنها قد تشكل لغة عالم الاجتماع الغربي ناهيك عن عالم الاجتماع الاسلامي.

إن مشروع الإصلاح و النهضة الذي ركز عليه الأستاذ البنعيادي في مقاربته لفكر مالك بن نبي ، هو الخطاب الذي تجدد الآن مع الظاهرة الغربية الخطيرة التي خبرها مالك بن نبي و حللها وهي ظاهرة الحضور الاستعماري في عالمنا ومانعرفه الآن بمصطلح الاحتلال، حيث إن المشروع الأمريكي للإصلاح يحضر بقوته العسكرية والإعلامية و المخابراتية ، و لايمكن فهمه و مواجهته إلا بما فصل فيه مالك بن نبي من نفسية المستعمر وحرصه على صناعة فوضى العالم الإسلامي و إرباكه من جهة، واستمرارية قابلية الإنسان المسلم لهذا الوضع وتزكيته أحيانا مع من يتحدثون باسم الإسلام صوفية الزردة (و الذين – حسب مالك بن نبي – لايمكن مواجهتهم إلا بالعلم وعلماء الإسلام لا بالحداثة ودعاة التأويل).

إن هذه النفسية الاستعمارية الاحتلالية هدفها **استمرارية الصنم و هيمنة الوثن عوض الفكرة، وغرام بالمستحدثات بعيدا عن كل أفكار أصيلة ومشاريع فعالة** ، و بالتالي غياب أي مشروع حقيقي للإصلاح ينطلق من تغيير ما بالذات حتى يتغير ما بالواقع. وأن هذه الممانعة و الاستعلاء لا يمكن أن يحمله إلا إنسان مرابط موحد فهم –كما يقول مالك– أن وظيفة الإصلاح هي ترجمة الوظيفة الاجتماعية للدين على أرض الواقع.

هذه **الوظيفة الاجتماعية للإسلام** التي نلاحظ بجلاء ضعف استثمارها في الواقع وسط هذا المجتمع المنحل بسبب أوثان السياسة و التفكير الذري (التجزيئي) كما يقول مالك بن نبي ، الوظيفة الاجتماعية للإسلام هي الوظيفة الأساسية لمشروع الثقافة البانية الذي تروم الجمعية من خلاله خدمة هذا الوطن و تجديد ميلاده عبر عملها الثقافي والاجتماعي والتربوي.

و أذكرأنني فرحت كثيرا عندما تعرفت في بداية قراءاتي لفكر مالك بن نبي على كتابه ''الظاهرة القرآنية''، فقد وضعت آنذاك –وأنا شاب في العشرين من العمر يحاول تأسيس وتأصيل منظومته الفكرية – معيارا أساسيا لتحديد أهمية كاتب ما في مجال الفكر الإسلامي، حيث كان المعيار هو إنتاج هذا الكاتب لمؤلف يدون فيه منهج ومنهجية تعامله مع القرآن الكريم. وفعلا وجدت في كتاب الظاهرة القرآنية لمالك هذا الوعي القرآني بروح الدين الإسلامي و تفسيره المجتمعي، الشيء الذي انسحب على مختلف مؤلفات مشروعه. والشيء ذاته أكد اقتناعي بجدية هذا المشروع و أصالة صاحبه ، وهو نفس الإحساس الذي انتابني قبله في تعاملي مع كتابات الشهيد سيد قطب.

فرحم الله شهيدي الفكر الإسلامي و شاهديه النزيهين المخلصين، وأحسب أن استثمار هذا المشروع الباني المهجور وأفكاره المخذولة- إضافة إلى كل فكر أصيل– مدخل مهم من أجل المشروع الحقيقي للإصلاح و النهضة. وهذا ما نتمناه أيضا في

فعاليات هذه الذكرى المئوية لميلاد المفكر مالك بن نبي، ومن خلال الندوة الدولية المزمع تنظيمها تحت شعار:

مالك بن نبـــي : مفكر شاهد ومشروع متجدد

أيام : 15/14/13نونبر 2005 ومن خلال هذا الإصدار و غيره .

فجزى الله خيرا الأخ الكريم محمد البنعيادي وتقبل منه سعيه هذا في لفت الانتباه إلى هذا المشروع الأصيل وسط زحام الأفكار و النظريات والتجارب غير الواعية، والله من وراء القصد و هو يهدي السبيل.

مـ.مصطفى شعايب

وجدة في 2005/07/14

مـــــقـــــدمـــــة :
في دواعي العودة إلى مالك بن نبي رحمه الله في ذكراه المائوية ؟

في اعتقادي إن القراءة الجديدة والعودة إلى فكر مالك بن نـــبي تبررهـــا عـــدة اعتبارات أجملها في بعض النقط الآتية:

أولا : إن مالك بن نبي في فهمه وتمثله للثقافة الإسلامية في أبعادها الإنــسانية والعالمية ظل مفكرا وفيلسوفا مغمورا لم تحسن التيارات السياسية والثقافية استثمار أفكاره خاصة مثقفي التيار القومي ومثقفي التيار الإسلامي ، فبقيت أفكـــاره "محاصـــرة" علـــى هامش الفعل الثقافي والاجتماعي والسياسي .

ثانيا : إن مالك بن نبي لم يقرأ جيدا وبموضوعية لا في زمن فكره ، زمن ثورات العالم الثالث القومـــــية والوطنية ، ولا في الزمن اللاحق ، زمن الثورة الإسلامية والصحوات الإسلامية الجديدة الممتدة عبر العالم الإسلامي .

ثالثـا : إن مالك بن نبي يمثل ثقافة عالمية متمحورة حول الإسلام وصادرة عـــن عملية استقراء للقرآن على ضوء تراكم معرفي شمولي ورصد اجتماعي للواقع . ومالـــك يملك ، عبر هذه الخاصية ، فرادة يمتاز بها عن غيره في تاريخ التجربة الفكرية التي عاشـــها المسلمون في نهضتهم الحديثة، وهي تكمن عنده في محاولة ربط قطاعات المعرفة في علومها ووظائفها وفي محاولة رؤية النشاط الإنساني متكاملا في جوانبه الاجتماعية والسلوكية وفي أبعاده الروحية وتطلعاته الأخروية [2] على حد تعبير الدكتور وجيه كوثراني .

---

[2] مجلة رسالة الجهاد ع 86 ، ص 107 مارس 1990

رابعا :ضمور الحوار والتواصل والاستيعاب والتراكم على مستوى المحطات الثقافية والفكرية والاجتماعية والسياسية التاريخية التي برز فيها مفكرون كبار، حيث أصبحت هذه المراحل التاريخية شبيهة بدورات متقطعة لا يستوعب – من خلالها – اللاحقون السابقين من المفكرين ، حيث أصبحنا نشعر أننا ملزمون دائما بالعودة إلى نقطة البداية ، فكأن كل مرحلة تنفي سابقتها بدل أن تتجاوزها وترقى بها .

إن مالك بن نبي حلقة وصل تربط بين " النهضة " الإسلامية و"الصحوة " الإسلامية حيث تجاوز – بعد الاستيعاب – أفكار النهضويين الأوائل وأسس مفاهيم جديدة حول القضايا المصيرية التي تشغل بال الأمة وتهدد حاضرها ومستقبلها .

لكن المستغرب هو أن اللاحقين " لم يتواصلوا في (صحوتهم) الجديدة حتى أضحى التقليد الأحادي بديلا لكل فكر وأصبحت السياسة البراغماتية اليومية حكما في كل موقف وممارسة " ([3]) .

لهذا ، فعودتنا إليه تنطلق من :

- الحرص على التواصل مع الأفكار البناءة في تاريخ إسلامنا الحديث، والتي وإن فشل بعضها ولم يكتب له النجاح ، فإنها تفسح لنا المجال " على الأقل للتّأمل فيما هو مستمر في العقلية السائدة والمنهج وأسلوب التفكير السائدين .
- اعتبار منهج مالك أشبه ما يكون بحاسة لم يحسن العمل الإسلامي الاستفادة منها بالقدر الكافي .
- كون العودة إلى فكره ضرورية لاكتشاف حالة من حالات النسيان في حقل الذاكرة عند المثقف المسلم المعاصر من أجل التواصل في سياق السيرورة التاريخية بين الأفكار الإسلامية والعالمية أيضا ، لأن حالة النسيان والانقطاع هي التي غيبت

[3] نفسه ص110

حدوث " الشرارة الفكرية" التي احتاج إليها مؤتمر باندونج – مثلا – بل التي تحتاج إليها أية رؤية حضارية تطمح للنهوض بالعالم الإسلامي .

إنه كان – حقا – من الذين بذلوا جهدهم تفكيرا وكتابة لمهمة الإصلاح والنهضة متميزا بثقافة واسعة موسوعية وموضوعية في التحليل ومنهجية ودقة في اختيار الألفاظ مما يوجب علينا أن نعد فكره تعبيرا عن مرحلة النضج في الفكر العربي الإسلامي وخاصة السياسي وذلك عندما اقتحم مجال الحديث عن الديموقراطية وحقوق الإنسان وفلسفة الإصلاح والتغير من وجهة نظر إسلامية . إلا أن عدم الاهتمام الكافي من الدارسين بتراثه حرم جيلا من هذه الأمة من الاستفادة من مشروعه .

إن ما أطمح إليه في هذا الإصدار هو فتح نافذة مطلة على محطة أساسية من محطات تطور الفكر الإسلامي المعاصر . وأن المشاهد التي ستطل عليها قراءتي هي لجزئيتين من تراث هذا المفكر الإسلامي وهما:

- **موقفه من الحركة الإصلاحية** باعتبارها سؤالا من أسئلة " مشكلات الحضارة " ، سؤال مازالت الإجابة عليه محور الصراعات والتطاحنات بين المكونات والتيارات الفكرية والأيديولوجية داخل المجتمع الإسلامي المعاصر.
- **وأصالة الأفكار وفعالية المنهج** باعتبارهما شرطين مهمين لتحقيق أي إصلاح حضاري حقيقي.

وأخيرا:

فقد كان اختيار إحيائنا لذكراه المائوية توخيا لإبراز أسس فكر أحد أعمدة الفكر الإسلامي، وإضافة لبنة في بناء " البحث في تراث مالك بن نبي " راجين أن يعطى لهذا المفكر حقه من البحث والتعريف والمزيد من الاعتناء في مجالات : علم الاجتماع وعلم الاقتصاد والعلوم السياسية و الفلسفة والأخلاق .....

الفصل الأول:
المفكر والمشروع

المبحث الأول: محطات بارزة في حياة مالك بن نبي

المبحث الثاني: المشروع النبابي (رؤية عامة)

المبحث الأول:
محطات بارزة في حياة مالك بن نبي

ولد مالك بن نبي في قسنطينة بالجزائر سنة **1905**م من أبوين فقيرين ،حيث كان والده موظفا بسيطا وكانت والدته تعمل خياطة للمساهمة في أعباء العائلة.

عندما بلغ السادسة من عمره، دخل كتابا قرآنيا. وقد قضى فيه حوالي أربع سنوات كان خلالها يتردد على المدرسة الفرنسية..

* في سنة 1918 م أنهى دراسة إعدادية أهلته لدخول المرحلة الثانوية بتفوق، مما سمح له بمنحة لإكمال دراسته في قسنطينة .

* في سنة 1922 تعرف على بعض تلاميذ الشيخ عبد الحميد بن باديس وأفكاره

* في سنة 1925 زار مرسيليا وليون وباريس بحثا عن عمل رفقة صديق له عاد بعدها إلى الجزائر خاوي الوفاض، ليعمل كاتبا في محكمة تبسة .

* في وهران سنة 1927 م اطلع على جريدة الشهاب التي يصدرها ابن باديس الذي تعرف عليه سنة 1928م في قسنطينة .

* وسافر إلى فرنسا مرة ثانية سنة 1930 م حيث دخل مدرسة اللاسلكي لدراسة هندسة الكهرباء بعدما لم يوفق في ولوج معهد الدراسات الشرقية .

* وفي الحي اللاتيني حيث يسكن الألوف من العرب والمغاربة كان يدعو للإصلاح والوحدة العربية ولكل شعار عربي – إسلامي .

* في سنة 1931 م تزوج بفتاة فرنسية أسلمت وسميت خديجة .

في باريس تعرف على المستشرق ماسينيون (4) فاختلف معه وكتب ردا على أفكار الاستشراق نشره بعنوان " إنتاج المستشرقين " ناقش فيه نظرياتهم وتحليلاتهم .

* وقابل المهاتما غاندي في فرنسا سنة 1932، فترك عنده اهتمامات بحركات وثورات آسيا ترجمها فيما بعد في نظرية"الأفرسيوية" التي ربط فيها بين تحرير العالم الإسلامي ومحيطه "الأسيوي–الإفريقي". وهو أمر عالجه سياسيا وفكريا في كتابه "فكرة الإفريقية –الأسيوية" في ضوء مؤتمر باندونج(5).

* وفي السنة نفسها عاد إلى الجزائر فوجدها تعج بموجة الإصلاح، وخاصة إذا علمنا بأن "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" التي تأسست سنة 1931 كانت قد بدأت في حملتها التطهيرية ضد الخرافة والشعوذة وكل مظاهر السلوك المنحرف من أجل تهيئ الشعب لمعاركه القادمة ضد الاستعمار الفرنسي.

* في سنة 1936 تعرف على الشيخ محمد عبد الله دراز بفرنسا،وقابل بعض أفراد الوفد الجزائري الذي ذهب لمطالبة فرنسا بالمشاركة البرلمانية بزعامة الشيخين عبد الحميد ابن باديس والبشير الإبراهيمي، هذا الحدث أفرد له حيزا لابأس به في مؤلفاته واعتبره خطأ سياسيا ارتكبته الحركة الإصلاحية الجزائرية .

* وفي السنة نفسها قدم طلبا " إلى الوزير المسؤول بباريس من أجل تأسيس معهد بقسنطينة لتحضير الطلبة الذين يرغبون في الدخول إلى كليات الهندسة " (6) لكن لم يأته رد .

*وفي سنة **1939/1938** أسس مدرسة للأميين المغاربة بمدينة مرسيليا، لكنه منع من التدريس فيها بحجة عدم توفره على المؤهلات المطلوبة.

---

[4]– د. أسعد السحمراني : مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ، ص : 15 . ط 2/ 1986 – دار النفائس بيروت

[5]– مجلة المنهل ، ع : 495 ، ص : 68 .أبريل / ماي 1992

[6]– د. أسعد السحمراني ، م.س ، ص : 17 .

" وبعد أن لمع نجم مصر في سماء دول عدم الانحياز، غادر ابن نبي باريس إلى القاهرة في سنة **1956** م ولم يعد إلى فرنسا إطلاقا " (**7**) وبقي في مصر حتى **1963** ليعود إلى الجزائر ويصبح مديرا للتعليم العالي حتى سنة 1967 عندما قدم استقالته ليتفرغ للعمل الفكري والإصلاح والذي تَوَّجَهُ بتأسيسه لملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر سنة 1968 .

* في "القاهرة استطاع مالك بن نبي إتقان اللغة العربية وبدأ يحاضر ويكتب بها"(**8**) فأصدر كتابه "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة". وأثناء وجوده في مصر زار سوريا ولبنان لإلقاء الندوات والمحاضرات حول الإصلاح الفكري والثقافي والثورة وكيفية مواجهة الاستعمار .

وكان مالك بن نبي " واسع الاطلاع على الأحداث الدولية وعلى المشاكل التي يتطارحها التفكير في العصر الحديث وفي العالم العربي. وكغيره من العلماء، فإنه قد تمكن من التغلب على ما يطلق عليه البعض اسم العائق الإبستمولوجي... وكان المنهج الرياضي، كما كانت المعلومات الكهربائية تطغى بين الآونة والأخرى على تفكيره ،فإذا كلمك عن مسألة وشرحها ودعمها بالحجج الدامغة التي لا تقبل الجدال قال لك : هذه قضية رياضية"(**9**) .

لذلك فـــــ " المهندس الكهربائي والعالم بالمعنى الدقيق للكلمة لم يختف في جميع المناقشات والمناظرات والعروض والمحاضرات " (**10**) التي كان مالك يقدمها، وكان مطلعا على الثقافة العربية الإسلامية اطلاعا واسعا ويستشهد كثيرا بابن خلدون، وتحليله

---

[7]- مجلة المنهل ، م.س ، ص : 68 .

[8]- د. أسعد السحمراني ، م.س ، ص : 18 .

[9]- د.عبد اللطيف عبادة : صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ص : 18 .دار الشهاب للطباعة والنشر باتنة – الجزائر .

[10]- نفسه ، 19

الوافي لبعض قضايا القرآن في كتابه " الظاهرة القرآنية " أكبر دليل على معرفته الواسعة بتراثنا الثقافي الإسلامي الأصيل.

كما استطاع دراسة الأناجيل بعين الناقد دراسة مقارنة، وكان لا يكتفي بالمعرفة لتقييم مخاطبيه، بل يشترط السلوك والفعالية. ولا شك أنه هو الذي عرف الثقافة بكونها نظرية في السلوك وليست نظرية في المعرفة فقط .

لقد كان غزيرا في إنتاجه الفكري و خاصة بعد تفرغه سنة **1967** إلى أن توفاه الله في **31/10/ 1973** بالجزائر.

وقد ترجم هذا الإنتاج مجموعة من الأساتذة منهم عبد الصبور شاهين و المحامي عمر مسقاوي الوصي على نشر وترجمة أعمال مالك بن نبي رحمه الله .

المبحث الثاني:
المشروع البنابي (نسبة إلى ابن نبي): رؤية عامة

إن مالكا كان يملك – حقيقة – مشروعا بنائيا تغييريا رسمه من خلال تراثه الفكري الضخم الذي يحدد فيه المرجعية (الظاهرة القرآنية) والوسائل والأهداف (الحضارة، الثقافة، المجتمع، الانسان، التغيير...).

ونقترح لمن يريد معرفة هذا المشروع والمنهج البنائي التغييري الذي رسمه ابن نبي قراءة تراثه حسب الترتيب التالي لكتبه :

- الظاهرة القرآنية .
- وجهة العالم الإسلامي
- شروط النهضة .
- مشكلة الثقافة.
- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي .
- ميلاد مجتمع .
- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة .
- فكرة الأفرسيوية .
- المسلم في عالم الاقتصاد .
- فكرة كمنولث إسلامي .
- دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين .

بالإضافة إلى كتب أخرى لا تقل أهمية منها :

مذكرات شاهد القرن ، تأملات ، بين الرشاد والتيه ، إنتاج المستشرقين ...

إنها مقاربة منهجية لفهم أعمال ابن نبي الكبرى مع التركيز على أعماله الرئيسية التي أرى فيها تلخيصا لفلسفته ومنهجه ومشروعه ككل في التغيير الحضاري .

ولكن،كيف يمكن فهم وتنفيذ مشروع مالك بن نبي باعتباره مشروعا مجتمعيا ؟

للجواب ، حسبنا التركيز على الخلاصات التالية :

في سنة 1944 عندما سجن ابن نبي بتهمة التعامل مع الألمان انبرى لكتابة " الظاهرة القرآنية " ليخرج به على الناس سنة 1946 ، تحدث فيه عن أصالة الفكرة أو الفكرة الأصيلة المنطلقة من القرآن والسنة كمرجعية أساسية، هذا الكتاب الذي اعتبره الشيخ عبد الله دراز ظاهرة حقيقية في تقويمه له :

* تصدى للتنظير في الفكر الإسلامي محاولة منه لإيجاد سبل جديدة ومناهج جديدة لقراءة القرآن قراءة جديدة تحسم مسألة المرجعية .

* حاول وضع حد للصراع الذي كان دائرا حول القرآن والنبوة والوحي مبرزا :

– خصائص الوحي وتقديمها على ضوء المناهج الحديثة دون الخروج عن أصالة الفكرة والموضوع ، وذلك باعتماد المقاربة الأنتربولوجية ،والثقافة المحضة ، وفلسفة التاريخ التي مكنته من إيجاد مفهوم جديد للتأثير الذي أحدثه القرآن في البنية العربية والتأسيس لمنظور جديد غير أورثوذوكسي .

– فلسفة جديدة لموضوع النبوة .

– أن الظاهرة الدينية أساس للحضارة .

إنها الأرضية الخصبة التي انطلق منها مشروع مالك بن نبي الذي سيحدد فيه مفهومه لفكرة الحضارة والإنسان والثقافة والسياسة والتغيير ...

لقد كانت تجربته رحمه الله أصيلة حقا، وكان نشدانه الحقيقة إيجابيا حقا، لأنه أثمر وكانت ثمرته طيبة لأنها نتاج شجرة طيبة، رغم كل ما ينسب له من أخطاء وهفوات ، فهو إنسان قبل كل شيء ، وكل يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب الرسالة الخالدة محمد صلى الله عليه وسلم .

فتغمد الله فقيدنا برحمته الواسعة وأسكنه جناته الفسيحة وجزاه عنا وعن الإسلام والمسلمين كل خير .

الفصل الثاني:
الحركة الإصلاحية
وسؤال الفكر والمنهج والفعالية

المبحث الأول: في أجواء تسرب الفكرة الاصلاحية إلى الجزائر
المبحث الثاني: مرجعية الاصلاح وفلسفته
المبحث الثالث: وقفات نقدية للحركة الاصلاحية

المبحث الأول:
في أجواء تسرب الفكرة الإصلاحية إلى الجزائر

لقد ظل الإسلام الحصن المنيع والدرع الواقي للشخصية الإسلامية عامة – والجزائرية خاصة – من سياسة الإدماج والتذويب التي سلكها الاستعمار ، وكان للعلماء دور كبير في عملية التصدي لذلك عن طريق نشر العربية وتعليم الإسلام وتراثه ، وشحذ الهمم وتعبئة الطاقات وتنظيم الصفوف قصد المواجهة الحتمية مع الاستعمار .

وإذا كان التصوف قد لعب دورا حاسما في بناء دولة الموحدين وتعزيز سلطانها في شمال إفريقيا والأندلس، فإنه قد شوه هذا الوجه المشرق في القطر الجزائري مدة طويلة ، وذلك عندما سيطرت الطرق الصوفية على الفكر الإسلامي، وبالتالي على المجتمع خلال القرن التاسع عشر، سيطرة مذهلة ساد خلالها الظلام وقيم الجمود وكثرة البدع كظواهر اجتماعية شلت الطاقات البشرية . وهكذا أصبح دور الصوفية تخريبيا بعدما كان منارة للإشعاع والجهاد ضد الاستعمار .

ومع ذلك لا يمكن إنكار الدور العظيم لبعض الزوايا في المحافظة على الثقافة العربية الإسلامية ونشرها والجهاد ضد الاستعمار، هذا الجهاد الذي بدأت مسيرته مبكرة على يد الأمير عبد القادر سنة 1832 بعد تخلي العثمانيين عن الدفاع عن الجزائر، وحملت المشعل بعده "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" لواء الإصلاح، متأثرة بالحركة الإسلامية والإصلاحية المشرقية من أجل الحفاظ على الأصول وصيانة الهوية الإسلامية العربية للجزائر ، وقد لعب مؤسساها – ابن باديس والبشير الإبراهيمي – دورا كبيرا في إنارة طريق التحرر بعد ليل الاستعمار الطويل(11).

[11]– لمزيد من التفصيل، أنظر كتاب الأمة 57 : عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية : مصطفى محمد حميداتو

إن الحركة الإصلاحية تعتبر الامتداد الطبيعي لمدرسة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي داخل الجزائر ، وقد كان ابن باديس – رئيسها وزعيمها – سلفيا يرى في الإسلام ، كما يتمثل في منابعه النقية الأولى ، طوق النجاة للجزائر من الشعوذة والخرافة التي صارت عقيدة الطرق الصوفية ورجال الدين الرسميين الذين أصبحوا خدما للاستعمار الفرنسي (12) الذي شن هجوما عنيفا على الإسلام عندما رآه لحنا يميز المواطن الجزائري ويربطه بالعروبة ويشده إلى العالم العربي . ولم يكتف لتحقيق ذلك باعتماده على المبشرين فقط، بل على رجال الطرق الصوفية التي مكن لها إحكام القبضة على القلوب، وشل أغلبية الشعب بالشعوذة والانحرافات ... كل ذلك خدر الجماهير وصور الفرنسيين على أنهم قدر من الله لا يمكن رده .

وابن نبي، كأحد أبناء الجزائر المخلصين، كان له نصيب من التأثر بالفكرة الإصلاحية، حيث كان نشاطه في فرنسا – خلال الثلاثينات والأربعينات – مطبوعا بنفحة " باديسية "(نسبة إلى الشيخ المرحوم عبد الحميد بن باديس) استطاعت إعطاء دفعة مهمة لعملية استنهاض الهمم داخل صفوف الجالية الجزائرية التي أصبحت – فيما بعد – من أهم خلايا جبهة التحرير الوطني في فرنسا .

يقول مالك بن نبي عن أجواء تسرب الفكرة الإصلاحية إلى الجزائر : " وكان ذلك في عصر آبائنا الذين سمعوا بصورة غامضة كلاما عن جمال الدين الأفغاني الذي انتقلت فكرته من فم إلى أذن حتى وردت الضمير الجزائري، فأحدثت على سطحه الهادئ تلك التموجات ، لقد كانت هذه الرعشة تدل على الحياة في عالم الموت وكانت صرخة تعلو في عالم الصمت و(خطرا) في عالم الاستعمار، و لقد شعر الاستعمار فعلا بالخطر، فأخرج من محفظته رجلا تأخذه من حين إلى حين الحالة الصوفية ، كي يجدد به عصر الدراويش، فكان المنظر جذابا يلفت نظر الشعب البسيط المتعطش لخوارق المعجزات،

[12]– د.محمد عمارة : مسلمون ثوار ، ص : 463 .ط 3/ 1988 ، دار الشروق.

فيأتي بنقوده يقدمها نذورا عندما يدق البندير(دف تستعمله الصوفية في رقصاتها)، وفكر الرجل الذي تأخذه الحالة الصوفية كي يزيد تأثيرا على مشاعر الشعب البسيط، فوضع حوله حلقة من (العلماء) يتقبلون تبرعات البسطاء ويباركون هؤلاء البسطاء المتعطشين للمعجزات " (13) .

ولم يكن هذا إلا مظهرا من مظاهر القابلية للاختراق والاستعمار التي عششت في العقول والضمائر الخالية من الفكرة الإسلامية الأصيلة ، الفكرة التي كانت منذ بداية الثورة الإسلامية – كما يقول مالك – الوقود المنشئ لأعظم حضارة في التاريخ البشري. ويستمر في وصف الوضع المأساوي الذي سيطر عليه الوثن قائلا : " وحتى عام 1925، فإن الوثن كان يسيطر في ظل الزوايا، حيث أرواحنا المتسكعة تذهب لالتماس البركات واقتناء معجزات "الحْجَابْ" (التميمة).

وفي عام 1925 كانت النتيجة المقابلة : الفكرة الإصلاحية التي خرجت إلى الوجود، و هزت قِبَبَ أوليائهم القديمة، وتدحرجت أوثانهم مع أسى عماتنا اللواتي رأين نار احتفالاتهن التقليدية الصاخبة المهداة نذورا لذكرى الأولياء تنطفئ . لقد خمدت حرارة المرابطين (أتباع الطرق الصوفية) .. والجنة التي يضمنها الشيخ لمريديه بغير ثمن قد أخلت مكانها لمفهوم الجنة التي لا تدرك إلا بعرق الجبين"(14).

---

[13]– مالك بن نبي : في مهب المعركة ، ص : 87 . ط 4 / 1991 دار الفكر المعاصر لبنان– دار الفكر سوريا

[14]– مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ص : 97 . ط1 / 1998 ترجمة بسام بركة / أحمد شعبو دار الفكر – سوريا.

المبحث الثاني: مرجعية الإصلاح وفلسفته

إن مالك بن نبي يريد للثقافة البانية للوعي الإصلاحي أو الفعل السياسي أو الحركة السياسية أن تتكون من عناصر ثلاثة :

أ – المعرفة :

معرفة المرجعية (الوحي) وتحقيق الإقلاع من منطلقات الفكرة الأصيلة وعبر المعرفة المتجددة للشريعة ومقاصدها ومقتضياتها ، ثم معرفة الواقع باعتباره الأرضية المراد تغييرها بشكل يتناغم مع التشريع، وهذه المعرفة هي التي من خلالها نستطيع تحديد (الثقافة التي نريد صنعها) ، ولعل من البدهي في ذلك أن يكون لدينا اختصاصيون " يتوفرون على دراسة القضايا بدقة وعمق وشمول لأن الاعتماد على الظواهر البارزة من الأحداث يقرب الخطة من السطحية والارتجال ويبعدها عن العمل ويعرضها – بالتالي– للخطر لأن الموضوع ليس موضوع فكر يخطئ ويصيب ، بل موضوع حركة يمكن أن يؤدي انحرافها إلى الوقوع في المهوى السحيق ... ولعلنا لا نحتاج إلى التأكيد على ضرورة الممارسة والاندماج في الجو كشرط من شروط الحصول على المعرفة الدقيقة الشاملة ، لأن الثقافة السياسية ليست ثقافة نظرية ... تخضع للقراءة والدرس بل تحتاج – إلى جانب ذلك– إلى الإحساس بالواقع في حركة الحياة " .

ب – الوعي :

والوعي الحقيقي يمثل نقطة بداية الفعل الاصلاحي ، ويكون متى أضاءت الفكرة الأصيلة الفضاء المعرفي ونشرت نور التغيير للمعيش بعيدا عن الأفكار الميتة الموروثة التي تمثل (اللاثقافة) ؛ وفي هذا السياق ، يحذر مالك بن نبي مما أسماه بـ " أحادية الثقافة " والتعصب ، لأن في ذلك دعوة ضمنية لاغتيال عقول الآخرين من جهة ، ومن جهة

أخرى فإن خطورتها تتجلى أكثر في كونها قد تحجب الرؤية عن بعض جوانب الواقع المعيش ، وبالتالي تحجب رؤية التزوير والخطأ في الوسط السياسي والاجتماعي المراد بناؤه أو على الأقل تغييره نحو الأفضل .

وهذا الصنف من الثقافة (اللاثقافة) هو الذي أشهر أصحابه السيف في وجه مشاريع الحركة الإصلاحية ووقف بالمرصاد في وجه الأعمال التجديدية التي كانت تقوم بها " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين " على المستوى التربوي والثقافي والسياسي ... لتبصير الناس بواقع الاستعمار وتحطيم أنساقه الثقافية والسياسية والعسكرية التي سحقت دوما مصالح الشعب الجزائري وشوهت أصوله العقدية والثقافية عن طريق تشجيع " القوارض " الطرقية ، والقوارض العميلة للاستعمار .

معنى ذلك ، أن الوعي لا يمكن أن يتجسد إلا في إدراك الواقع إدراكا يسمح بفقه ملابساته بعد تفكيك مكوناته وتحليل أنساقه لاكتشاف ما سماه مالك بن نبي (ما ضد الثقافة) والذي (يفرض علينا أن نكون في انتباه مستمر تجاهه) أي يفرض علينا الموقف ، وهو العنصر الثالث للثقافة البانية للفعل الاصلاحي.

ج – الموقف :

وهو الإجابة العملية والمنطقية عن أسئلة الواقع انطلاقا من معرفة حقيقية به ومرورا بوعي حساس تفتق عن هذه المعرفة ؛ إذ لا معنى للمعرفة والوعي إذا لم يتحولا إلى موقف شجاع يتبلور عبر أدوات العمل الفكري الثقافي ويعلن في الناس عبر أدوات العمل السياسي قصد الشهادة عليهم والإصلاح من أمورهم.([15])

إن مشكلة مجتمعاتنا الإسلامية –والتي تعد سببا من أسباب الفوضى في مختلف المجالات– تكمن في كون الفرد المسلم أصبح عاجزا عن الجمع بين العمل والتفكير في

[15] انظر دراستنا : الاختيار الثقافي في البناء السياسي في المشروع الحضاري البنابي مجلة المقدمة عدد2005/1، ص65 ومابعدها

الوقت ذاته، أو أن يربط بين جهده الفكري وجهده العملي، وهذا العجز أو النقص" كما يتجلى في الإطار العام/النشاط الاجتماعي، يتجلى أيضا في الإطار الخاص أي في النشاط الفردي، فالفكرة الإصلاحية، مثلا، تستهدف إصلاح الفرد، ولكننا لا نشم مطلقا رائحة مصلح تتطلب معه الأمور أن يوجد ناطق بفكرة الإصلاح، أي حيث موضوع الإصلاح نفسه في المقاهي، وفي الأسواق، وفي كل مكان تنكشف فيه العيوب الاجتماعية التي يدعو إلى إصلاحها"(16) عبر "الفكرة الدينية التي تحدث تغييرها حتى في سمت الفرد ومظاهره حين تغير من نفسه، وبذلك يكون لمنهج التربية الاجتماعية أثره في تجميل ملامح الفرد، أي أن مجموعة من الانعكاسات تؤدي إلى خلق صورة جديدة، كأنها تتمثل في وجه جديد"(17).

"فعالم الأشخاص لا يمكن أن يكون ذا نشاط اجتماعي فعال إلا إذا نظم وتحول إلى تركيب"(18) إيجابي فعال، بمعنى أن الفرد خارج هذا التركيب الاجتماعي سيكون منعزلا عن كل ما يدفعه للتفاعل مع ما يحيط به من أفكار وأشياء وثقافات لأن"الفرد المنعزل لا يمكن أن يستقبل الثقافة (الاصلاحية)، ولا أن يرسل إشعاعها".

هذا فيما يتعلق بالتركيب الذي لابد لعالم الأشخاص أن يخضع له، أما فيما يتعلق بعالم الأفكار وعالم الأشياء فيقول مالك بن نبي"فإذا ما اتجهنا إلى المجال الاجتماعي وجدنا أن الأفكار والأشياء لا يمكن أن تتحول إلى عناصر ثقافية إلا إذا تآلفت أجزاؤها، فأصبحت (تركيبا)،فليس للشيء المنعزل أو الفكرة المنعزلة معنى أبدا"(19).

وارتباط ما هو ثقافي بما هو اجتماعي يتجلى أيضا في الفرق الذي قدمه مالك بن نبي بين العلم والثقافة، وكيف أن الثقافة منبعها الحياة الاجتماعية، وكيف أنها تخلق بيننا

---

[16] وجهة العالم الإسلامي،ص:83.

[17] نفسه ص 34

[18] مشكلة الثقافة، مالك بن نبي،ص:53.ترجمة عبد الصبور شاهين تصوير 1989، دار الفكر سوريا

[19] نفسه،ص:63

علاقات اجتماعية:"فليست الثقافة سوى تعلم الحضارة–أي–استخدام جميع ملكاتنا الضميرية والعقلية في عالم الأشخاص، وليس العلم سوى بعض نتائج الحضارة، أي أنه مجرد جهد تبذله عقولنا حين تستخدم في عالم الأشياء. فالأولى تحركنا وتقحمنا كلية في موضوعها، وأما الثاني فإنه يقحمنا في مجاله جزئيا، والأولى تخلق علاقات بيننا وبين النظام الإنساني، والآخر يخلق علاقات بيننا وبين نظام الأشياء"(20).

وحتى تكون عملية الاصلاح عملية شاملة– كما يقول ابن نبي – لا يكفي أن يدرك أصحاب الفكرة–فكرة الثقافة التي لابد أن تسود–وحدهم ضرورة الإصلاح من الوضع الفكري والثقافي الحالي ، بل لابد من أن تدرك باقي الفئات الأخرى بطريقة أو بأخرى فكرة الإصلاح أو التغيير وتدرك أنه لابد من تغييرات ثورية:فإما أن نقوم نحن المسلمين بالتغيير في مجتمعاتنا، وإما طبيعة العصر تفرض علينا تغييرات من الخارج...لأن هذه هي روح العصر، فالذي يجب أن نؤكد عليه أولا وأن تتذكروه دائما: أننا إذا لم نقم نحن بثورتنا فإن التغيير سوف يأتي من الخارج ويفرض علينا فرضا"(21). وهذا لايتحقق طبعا لا بشبكة علاقات اجتماعية قوية يعكسها الأشخاص في سلوكاتهم الفردية والجماعية، أما إذا تفككت هذه الشبكة فما ذلك إلا إيذانا بنهاية المجتمع وحينئذ لا يبقى منه إلا ذكرى مدفونة في كتب التاريخ، وعديدة هي المجتمعات التي عرفت التحلل والفوضى الاجتماعية، وما أصابها هذا التحلل إلا عندما انتشر المرض في جسدها الاجتماعي، ولعل هذا التحلل يكمن في شبكة العلاقات ، فالمجتمع قد"يبدو في ظاهره ميسورا ناميا، بينما شبكات علاقاته مريضة ويتجلى هذا المرض الاجتماعي بين

---

[20] ميلاد مجتمع:ص:90

[21] وصية مالك بن نبي:"إما أن نغير وإما أن نغير"، مجلة العالم، ص:50، العدد:1988/244 ، وفيها نبوءة اجتماعية تفطن إليها ابن نبي حيث أصبح الاصلاح – اليوم – مشروعا أمريكيا مفروضا علينا لأننا لم نفقه سنة التغيير القرآنية.

الأفراد"(22) مما يفوت على حركات الاصلاح فرصة النهوض وخاصة إذا كانت تجهل نواميس وقوانين التحولات الاصلاحية الحضارية التي تنبع من (الظاهرة القرآنية). وهذا ما حاول ابن نبي الوقوف عنده في مجموعة من المقالات والكتب التي تبرز معالم مشروعه الحضاري.

[22] نفسه، ص:40

المبحث الثالث: وقفات نقدية للحركة الإصلاحية

رغم إعجابه الشديد بالحركة الإصلاحية خاصة جمال الدين الأفغاني في المشرق، والشيخ عبد الحميد بن باديس في الجزائر ، فإنه انتقدها في كثير من مواقفها ومناهجها ، بل وحتى في طريقة تعاملها مع الإسلام؛ وهذا ما يبين أن مالك بن نبي لم يكن " إصلاحيا " كسائر " الإصلاحيين التقليديين " في ذلك الوقت حيث كانت له نظرة خاصة لعملية التغيير. ومما لاحظه على الحركة الاصلاحية الجزائرية خصوصا:

1ـ استبداد الألفاظ بالأفكار

إن المتأمل في تاريخ النهضة الحديثة في العالم الإسلامي يلاحظ أن شرارتها بدأت مع الحركة الوهابية ، ثم جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ، والكواكبي وجمعية العلماء بالهند ، والحركة السنوسية ثم حركة الإخوان المسلمين ثم القومية العربية وأخيرا الحركات الإسلامية في الستينات وسقوطها في السبعينات وإعادة انطلاقها في الثمانينات لتجسيد مشاريعها كأحزاب في التسعينات،والمتأمل في هذه المسيرة يلاحظ سمة مشتركة للسقوط لخصها مالك بن نبي فيما أسماه:المشكلة في بنية التفكير أي أن السقوط (أو الفشل) بنيوي داخلي، ولذلك دعا إلى إعادة النظر في مفهوم النهضة والأدوات التي تقوم عليها، ومن بينها:

* **الثقافة** : ليس بالمفهوم الأنثربولوجي الفلكلوري ولكن بالمفهوم السيكولوجي النفسي ، الثقافة التي يتفاعل فيها الوعي بالسلوك والمعرفة بالممارسة ، الثقافة التي تعبر عن حركة تغييرية إصلاحية.

* **السلوك** : التغييري البنائي انسجاما مع الأصالة وتعبيرا عن الفعالية في البنية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ...

ولذلك ، شكلت مشكلة الثقافة ومشكلة الأفكار وصراعها في العالم الإسلامي هما دائما في أعماله ، حتى إنه اعتبر الفكرة بمنزلة الهواء الذي يخضع لخصائص التلوث والنقاء ؛ لأن وتيرة الحركة التغييرية في علاقتها بالديناميكية الاجتماعية والثورة والأيديولوجيا والحضارة ترتبط ارتباطا جدليا بطبيعة الأفكار ودرجة تلوثها أو نقائها.

لذلك صب مالك بن نبي جام غضبه على بعض المصلحين المولعين " بالبراهين لا بالحقائق " حيث لم يكن المجادل المصلح يغرق محدثه إلا في طوفان من الكلام وهيام بالكلمات وغرام بالألفاظ التي كان لها وقع شديد على عقل إنسان ما بعد الموحدين، حتى أصبحت الألفاظ تستبد بالأفكار، مما أعطى للنهضة طابعا سطحيا – حسب مالك – وجعل الحركة الإصلاحية عاجزة عن ترجمة الوظيفة الاجتماعية للدين على أرض الواقع .

إنه يأخذ على الحركة الإصلاحية عدم اهتمامها بالفكر باعتباره أداة إيجابية ذات فعالية وحركة ، ولكونها نظرت إليه باعتباره زينة وترفا، ومن ثم افتقادها الفعالية المطلوبة التي تعتبر في نظر مالك من الأسس الأولى التي يجب الاهتمام بها ليكون للفكر أثره الإيجابي...

2ـ افتقاد النهج العلمي

ومع تقدير مالك للكثير من الجوانب الإيجابية في فكرها، فإنه قد اكتشف لديها عيوبا منهجية أدت إلى تبديد الطاقات وبعثرة الجهود .. كما انتقد مالك المنهجية السياسية للعلماء المسلمين الجزائريين عندما ذهبوا إلى باريس سنة 1936 ضمن وفد جزائري للمطالبة بحقوق الجزائر(الانتخابات البرلمانية)، حيث رأى في ذلك خروجا عن المنهج الذي خطته لنفسها وهي أن يكون الإصلاح من داخل النفس(23).

---

[23]– رسالة الجهاد ، ع : 61 ، ص : 106 .دجنبر 1987

صحيح أن الحركة الإصلاحية استطاعت إخماد نيران أهل الزردة (الفتة)، وأزالت عن البلاد حمى الدراويش، وخلصت منها الجماهير بعد أن ظلت طوال خمسة قرون ترقص على دقات البنادير وتبتلع العقارب والمسامير مع الخرافات والأوهام، فذهبت بذهابهم تلك الجنة التي وعد بها المريدون بلا كد ولا عمل وهم يتلمسون رضا الشيخ ودعواته، وحلت مكانها جنة الله التي وعدها المتقين العاملين (24).وقد كان هذا مما يجب أن تستثمره الحركة وتؤسس عليه مشروعها الحضاري المتكامل، لكن...

ولذلك جاء ابن نبي ليكتب عما يجب أن يكون في المستقبل (شروط النهضة ، ميلاد مجتمع) ... فسعى إلى البحث عن كيفية تحريك البنية الداخلية للمجتمع لتصبح فاعلا وليس مفعولا به .

يقول عنه الأستاذ عمر مسقاوي : " تنطلق أفكار ابن نبي لا لتضيف في المجتمع الإسلامي معرفة جديدة بالفقه أو علما مستخلصا من تجارب الحضارة الحديثة ، بل لتنظيم (أي المنهج) هذه المعارف في مفاهيم تربوية تسير بالإنسان خطوة متقدمة " ([25]) .

ويقول كذلك في الإطار نفسه : " الأستاذ مالك بن نبي يطرح الإسلام كملهم لقيمنا وقادر على استعادة دور الإنسان مبرءا من ثقل الحضارة الإمبراطورية ، وهو يرى أن الإسلام لا يقدم للعالم ككتاب (فقط)وإنما كواقع اجتماعي يسهم بشخصيته في بناء مصير الإنسانية " ([26]) .

إن الذي نقص الحركة الإصلاحية إذن، ليس محتويات الثقافة ولا وسائل نشرها أو اكتسابها، وإنما الذي افتقرت إليه هو المنهجية والتخطيط أو ما سماه جودت سعيد في

---

[24]–مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص : 28 ،ترجمة : عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوي – دون تاريخ– دار الفكر

[25] د. عمر مسقاوي : نظرات في الفكر الإسلامي ومالك بن نبي ، ص : 26 . ط 1 / 1979 ، تصوير 1986 دار الفكر ، سوريا.

[26] نفسه ، ص : 47 .

كتابه "الإنسان حين يكون كلا وحين يكون عدلا" ب"الفاعلية"أي القدرة على العطاء والخلق والإبداع لأن الإنسان في الحقيقة حين يفقد شيئا يبذل من أجله نفسه يفقد معه أساس الفاعلية ويغرق في أساس الكلالة والوهن ، سواء كان هذا الذي يبذل نفسه من أجله حقيقة يستحق ذلك أو لا يستحق، إذ المهم أن تحدث له القناعة في أنه يستحق"(27).

إن تفكيره المنهجي الذي كانت الثقافة الغربية مؤطرة لجزء مهم منه فتح أمام الحركة الإصلاحية الجزائرية – خصوصا – آفاقا جديدة وذلك عندما " أطل في باريس على العالم الغربي ولم يدخل لعبته...يرقبه بعين الناقد، يدرك محاسنه ويحس بأبعاد مساوئه"([28])،رغم انفتاحه عليه وتزعمه لتيار"الاستغراب" في ذلك الوقت.

إن بعض المصلحين –رغم قوة خطابهم وصوابه في كثير من الأحيان– فقدوا فعاليتهم واستسلموا للكلالة والوهن:"قال زياد بن لبيد:"ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم شيئا فقال:وذاك عند ذهاب العلم، فقلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم؟ ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم، فقال: ثكلتك أمك يا ابن لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء"(29).

لقد دعا إلى التوقف عن تعليل النفس بالماضي والإقلاع عن الفوضى والارتجال بالسير على خطى ما سماه نظرية" الكل الاجتماعي " المنظم التي هي أساس تقدم المجتمع لأن " ميزانية التاريخ ليست رصيدا من الكلام بل كتل من النشاط الإيجابي والمادي، ومن

---

[27] الإنسان حين يكون كلا وحين يكون عدلا، جودت سعيد،ص:18.

[28] ذ. عمر مسقاوي ، : حول فكر مالك بن نبي ، ص : 26 .دار الفكر سوريا .

[29] أخرجه الإمام أحمد وصححه ابن كثير في تفسير المائدة–آية 63–"(و)استشهد به جودت سعيد على استسلام الأمة للوهن في كتابه السابق الذكر.

الأفكار التي لها كثافة في الواقع ووزنه " ([30]). وفي غياب " نظرية الكل الاجتماعي " هذه ، فإن الفوضى " تشتت فعالية الفكر وتشرذم حركة البناء إلى فردانية قاتلة ، والمواجهة غير ممكنة إلا من موقع الركيزة الثورية الهامة : التنظيم " ([31])

ولعل المتابعة الدقيقة لفكر مالك بن نبي ستكشف أن معالجته للتغيير الحضاري لم" تتم من خلال البحث في فلسفة العناصر : الأفكار – الأشخاص – الأشياء ، بل تمت في ضوء بحثه – المتشعب والخصب – عن حركة هذه العناصر " ([32]) وفعاليتها في واقع الناس، الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي ، بل إن التغيير الحضاري الذي ينشده مالك لن يكون إلا بتفاعل هذه العناصر الثلاثة مع الفكرة الدينية (الغيب) الأصيلة الفعالة في سياق البناء الحضاري .

3ـ من الزوايا الطرقية إلى الزوايا السياسية

صحيح أن الحركة الاصلاحية – من منظور ابن نبي – قد أمسكت بمقاليد النهضة " لو لم تكن على استعداد للعودة إلى فكرة الزوايا ذات الطابع السياسي والأصنام المزوقة بأسماء جديدة .

إن السياسة " لابد لها أن تكون أخلاقية جمالية علمية ، لكي يكون لها معنى في مسيرة التاريخ " علمية ضمن الحدود التي لا يخطئ فيها العلم ، أي عندما تمتص التفكير الاجتماعي والتاريخي فتصبح بالضرورة علما مطبقا على المشكلات الحيوية . في العمل السياسي يجب ألا نتورط في التفريط والإفراط ففي الحالة الأولى تكون السياسة بـ " اللافعالية " وفي الأخرى تكون مشوهة بالإجحاف ، والسياسة " التي تجهل القوانين الأساسية لعلم الاجتماع .. ليست إلا ثرثرة عاطفية ولعبا بالألفاظ وطنطنة غوغائية " .

---

[30] مالك بن نبي : مشكلة الثقافة ، ص : 109 . ترجمة عبد الصبور شاهين ، تصوير 1989 دار الفكر سوريا

[31] د.أسعد السحمراني ،م.س ، ص : 175 .

[32] مجلة الأمة القطرية ، ع : 69 ، ص : 28 . ماي 1986

لقد كانوا يستطيعون أن يبلغوا النهضة الحقيقية لو أن أوراق الحروز التي نبذها الشعب لم ترجع إليه باسم أوراق الانتخابات ، ولو أن العقول التي كانت تصدق بالمعجزات الكاذبة لم تعد مرة أخرى تصدق بمعجزة صناديق الانتخابات ولو أن الزردة التي كانت تقام في ساحة المشايخ لم تعقبها الزردة التي تقام في الميدان السياسي والتي أصبحت تقدم فيها الأمة قرباناً من حين إلى حين "(33) .

فالحركة الإصلاحية لوثت عملها واسمها سنة 1936 بذهابها إلى باريس ، وكان عليها أن تبقى متعالية عن أوحال السياسة والمطامع الانتخابية ومعارك الأوثان ... إن العلماء آنذاك وقعوا في الوحل حيث تلطخت ثيابهم البيضاء وهبطت معهم الفكرة الإصلاحية فجرت في المجرى الذي تجري فيه (الشامبنيا) في الأعراس الانتخابية ... كانت زلة نزيهة لما توفر فيها من النية الطاهرة والقصد البريء ... كانت زلة نحو السراب السياسي (34).

ويمضي في نقده اللاذع والساخر قائلا : " حقا لقد أصاب العلماء دوار القمة التي ارتقوها وهم يحملون الإصلاح بتحقيق المؤتمر الإسلامي الجزائري عام 1936 ، فالعلاقة السليمة بين الفكرة – الشيء قد أفلتت من أيديهم وهم على تلك القمة العالية، فهوت في سحيق المستنقع السياسي الموحل حيث الوثن يحتل مكان الفكرة . وهكذا غاص الإصلاح في الجدول الذي فيه تسيل (شامبانيا) الولائم الانتخابية ممزوجة غالبا بدم الشعب الطاهر المسفوح لغايات غير طاهرة في أكثر الأحيان (35) .

---

[33]- نفسه ، ص : 29 .

[34]- نفسه ، ص : 30 .

[35]- شروط النهضة ، م.س، ص : 26 .

إن انحراف الحركات ليست له طرق مرسومة من الناحية النظرية ولكن له دروب وسراديب مظلمة يتعثر فيها المصلحون في كل خطوة ، وقد أُوتِيت الحركة الإصلاحية من هذا الجانب المظلم الذي يضعه الاستعمار وأعداء الإصلاح والتغيير بصفة عامة .

لقد كان العلماء يعلمون – سنة 1936 – بأن مفتاح القضية الجزائرية كان في روح الأمة لا في باريس، لكنهم أخذوا على حين غرة." بأي شيء في الحقيقة رجعوا ؟ ألم يرجعوا بإخفاق المؤتمر الجزائري وبتشتيت جمعيتهم نفسها ؟ فلقد ساد الرأي الانتخابي وأصبح قائدا بدلا من أن يكون مقودا ، وهكذا انقلبت الحركة الإصلاحية على عقبها وأصبحت تمشي على قمة رأسها " (36).

4- الدروشة الجديدة تبيع أوراق الانتخاب بدل الحروز والتمائم

إن هذه المواقف الصارمة من الحركة الإصلاحية جعلته عرضة لسهام كثير من المصلحين الذين لم يكونوا يستسيغون النقد والنقد الذاتي على وجه الخصوص، وذلك عن طريق بعض الجرائد والصحف التي كانت تهاجمه بواسطة أجهزة الرصد الاستعمارية المسخِّرة– أحيانا– لبعض الغيورين على سيادة البلاد دون قصد منهم؛ ولعل كتابه "شروط النهضة" وما تعرض له من هجوم وحصار خير مثال على ما نقول، لكن كل ذلك لم يمنعه من التعليق على حدث 1936 السابق الذكر متحدثا عن آثار تلك النكسة المتمثلة في الزردة الكبرى المقامة من طرف (النخبة) – كما يقول – من رجال السياسة في بلدة (سطيف)، وذلك حين أمسكت النخبة المبخرة بكلتا يديها وألقت فيها العود الأخير من الجاوي (من أنواع البخور) المبارك الذي كان السدنة يعطرون به زواياهم ، هذه الزردة لم تكن إلا البداية لدروشة جديدة ذهبت معها جهود الإصلاح هباء ... دروشة لا تختلف عن سابقتها إلا بكونها تبيع بدل الحروز والتمائم ، حروزا في

[36]– مشكلة الأفكار ،م.س، ص : 98 .

شكل آخر هي أوراق الانتخابات والحقوق السياسية والأماني التي تسبح في الخيال مدعومة بالخطاب الديماغوجي الذي يركز على الحقوق قبل الواجبات .

5ـ ابن باديس مصلح مستنير.. ولكن

وعلى الرغم مما عرضتُ من نقده وموقفه من الحركة الإصلاحية ، فإن ذلك لم يمنع مالكا " من بيان حسنات الاتجاه الإصلاحي المتمثلة في تحطيم التعادل الخامد الذي استقر عليه عصر ما بعد الموحدين . وقد اتجه بصفة خاصة إلى الذكاء وإلى تكوين متخصصين بارعين أكثر مما اتجه إلى إخراج دعاة مخلصين؛ ويستثني من هذه النقيصة الإمام عبد الحميد بن باديس (37)، ذلك المفكر المستنير الذي سهر على صنع الرجال الجزائريين الذين أعادوا إلى العروبة والإسلام شعبا ووطنا أراد له المستعمرون الفرنسيون ولحضارته ومكوناته الذاتية الإبادة والفناء (38)؛ هذا الشيخ الذي استطاع إشعاعه أن يصل إلى أعماق الضمير الشعبي عندما شن حربا ضروسا ضد أولئك المشعوذين رافضا كثيرا من المحاولات للتصالح معهم قام بها علماء الأزهر حين قال لهم : " إننا نعلن لإخواننا أننا على رجاء اليأس من خصوم تضيع معهم حكمة لقمان ولا يجدي معهم حِلْم معاوية ولا يرضيهم عدل ابن الخطاب ولا تسامح صلاح الدين ... وليس لهم إلى هذه الغاية غير وسيلتين :

إحداهما الوشاية بنا إلى الحكومة بأننا وطنيون ، ضد الاستعمار وأننا نعمل للجامعة الإسلامية...

---

[37]- د. عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي،ص : 125 ، دار الشهاب للطباعة والنشر – باتنة- الجزائر.

[38]- د. محمد عمارة : مسلمون ثوار ، ص : 16 .

وثانيهما الاختلاق علينا مع الأمة بأننا ندعي الاجتهاد لأننا نستخف بأمتنا في الدين ولأننا ننكر الولاية والكرامة(39).

لقد استطاعت جمعية العلماء تجريد هؤلاء الصوفية من صلاحية الحديث باسم الإسلام وحصر نفودهم ونفود الخونة دعاة الإدماج في أوساط المجتمع، واستطاعت تشييد صروح سامقة للعلم والفضيلة على أساس السجون والاتهامات والنكبات التي لا تبنى الحياة إلا عليها كما قال ابن نبي رحمه الله.

6ـ الحركة الإصلاحية: ظلت أداة للتجديد وليس موضوعا للتجدد

ومع ذلك يلاحظ مالك أن الحقيقة التي أفرزها أفول الفكر الإسلامي، هي أن المغالاة تدفعه إما إلى التصوف والمبهم والغامض وعدم الدقة، وإما إلى التقليد الأعمى؛ وفي كلا الحالتين "ينقلب المجتمع على أعقابه ليعود إثر مراحل عوالمه الثلاثة (عالم الأفكار، عالم الأشخاص، عالم الأشياء) " (40)، أي حين يتشبث بعالمي الأشياء والأشخاص ليجد نفسه في النهاية في عصر ما بعد الحضارة .

وإذا كانت الحركة الإصلاحية قد فقدت – في نهايتها – النفثة الروحية والانتفاضة التصوفية الحقيقية مع قيامها على أساس القرآن، فإن الآية القرآنية وفكرتها لم تكن لتلمس مباشرة ضمير إنسان ما بعد الموحدين أو طبيعته أو مجال حياته ومناحي سلوكه وفكره، فهي بذلك أداة (للتجديد) أكثر من أن تكون إلزاما (بالتجدد) وهذا ولا شك أمر مهم ... فالتجديد في رأينا هو التفسير النفسي لما أطلقنا عليه لفظة

---

[39]– نفسه ، ص : 482 .

[40]– مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ،م.س،ص: 40 .

(التكديس) ولكنه يعد أيضا نوعا من الشرط المادي الضروري لعملية (التجـــدد) (41)، أي يجب أن نتعامل مع الآية ونستخدمها بكونها موحاة لا كفكرة محررة مكتوبة فقط .

7ـ معركة الإصلاح بين تيارين

إن حديثه عن الحركة الإصلاحية ونقدها لم يمنعه من رصد التيـــارات الأخـــرى، وخاصة تيار التغريب. إذ عرفت الساحة الفكرية – في ظل أفول الفكرة الإسلامية كمـــا قلت – ظهور طائفتين من النخبة داخل المجتمع الإسلامي بصفة عامة ، والجزائـــر بـــصفة خاصة، النخبة التي تتكلم العربية وتحاول مع ابن باديس أن تسترد الأصـــول الإســـلامية وهي الفكرة التقليدية التي أفلتت منها نهائيا مع سقوط الإصلاح وفرار أتباعهـــا إلى الوظـــائف العامة بعد الثورة ، وطائفة تتكلم الفرنسية وتتنكر بكل الأقنعـــة : كالكماليـــة والمـــصالية والحركة المضادة للمصالية ، والبربرية والتقدمية والوجودية المزيفة والماركسية المزيفة كي تخدم تحت كل سمة من تلك السمات، تحت أي قناع من هذه الأقنعة (42).

فالأولى فشلت لعدم وجود اتصال حقيقي لديها بنماذجها المثالية، والثانية فشلت لعدم استطاعتها الاتصال مع حضارة لم تفهم روحها العلمية، أي افتقدت الأولى للأفكـــار الأصيلة والثانية للأفكار الفعالة.

من هنا كان الخطأ الذي وقع فيه المحدثون ودعاة الإصلاح ناتجاً عن أن كليهما لم يتجه إلى مصدر إلـــهامه الحـــــق، فالإصلاحيون لم يتجهوا حقيقة إلى أصول الفكر الإســـلامي، كما أن المحدثين لم يعمدوا إلى أصول الفكر الغربي (43).

41– مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، ص : 157 .ترجمة عبد الصبور شاهين ط 5 /1986– دار الفكر سوريا

42– مشكلة الأفكار ،م.س، ص : 189 .

43– وجهة العالم الإسلامي ،م.س ، ص : 70 .

ومع ذلك فإنه من الضروري الفصل بين التيارين من الناحية النفسية ودوافع تحرك كل واحد منهما .

" فلقد كان السلفي وحده الذي يمثل فكرة النهضة ، وهو وإن كان لم يحقق شروطها العملية بصورة منهجية فإنه على الأقل لم يُضِعْ هدفها الجوهري ... أما المحدثون فقد انعدمت لديهم فكرة النهضة ذاتها فأصبحت ثانوية لأنهم لم يخالطوا حياة بلادهم إلا في الميدان السياسي ... فالحركة الحديثة ليست لها في الواقع نظرية محددة لا في أهدافها ولا في وسائلها ، والأمر لا يعدو أن يكون غراما بالمستحدثات ، فسبيلها الوحيد هو أن تجعل من المسلم (زبونا) مقلدا – دون أصالة – لحضارة غربية تفتح أبواب متاجرها أكثر من أن تفتح أبواب مدارسها مخافة أن يتعلم التلاميذ وسائل استخدام مواهبهم في تحقيق مآربهم" (44). وهذا كله يعني أن الاتجاهين لم ينتجا إلا خليطا ملفقا من مستحدثات مستعارة ورواسب متوارثة لم تستطع – جميعها – إيجاد الحل الملائم لمشاكل المجتمع، مما أدى إلى "الفوضى المكونة من عناصر لم تهضم أوتتمثل، تتفجر في صورة تنافر عنيف يمكننا ملاحظته حين نتأمل مثلا مظهر العباءة والجلباب القديم بجانب سيارة حديثة، وهذا النشاز يصبح أعجوبة حين نرى رجلا من الطراز القديم ذا عمامة كبيرة يعب من خمرة معتقة على منضدة إحدى الخمارات " (45).

---

44 – نفسه ، ص : 71 .

45 – نفسه ، ص : 78 .

الفصل الثالث
أصالة الفكرة وفعالية المنهج

المبحث الأول : بين الأصالة والفعالية تتخلل شروط النهضة
المبحث الثاني: على خطى ابن خلدون
المبحث الثالث: خلاصات واستنتاجات
المبحث الرابع: مفكرون على خطى ابن نبي
المبحث الخامس: ملكونات القوة في المشروع الحضاري البنابي
المبحث السادس: في مفهوم الحضارة عند ابن نبي
المبحث السابع: ابن نبي مفسرا
المبحث الثامن: وقفة نقدية

المبحث الأول:
بين الأصالة والفعالية تتخلل شروط النهضة:

إذا أردنا – منهجيا – قراءة مالك بن نبي ، لابد من الاعتماد على أمرين مهمين :

أولا : ***فكرة الأصالة*** التي تقوم على التغيير والثورية والتجربة وهو ما تم تحديد معالمه من خلال كتابه " الظاهرة القرآنية".

ثانيا : ***فكرة الفعالية*** : التي عرفها بكونها إنتاج فكرة وتنفيذها في أقصر وقت ممكن والحصول على أحسن النتائج ، ومن أبسط الأشياء تنتج أعظمها في أقل وقت ممكن، والتي تلخص الشروط الممكنة لتنفيذ مشروع مالك بن نبي .

إن مالك بن نبي يؤسس على هاتين الفكرتين " شروطه للنهضة" مركزا – قبل ذلك كله– على ضرورة البحث في معرفة أسباب السقوط الذاتية ، ثم البحث في فوضى العالم الغربي الفكرية والروحية والمنهجية ... باعتبارها عوامل موضوعية مؤثرة ، إنها الدعوة لإعادة قراءة الذات والآخر للفهم الحقيقي لأسباب السقوط .

في هذا المضمار ، ربط مالك شروط النهضة بحركية الإنسان وبنائيته ، لابخوضه لحركية زمانية ماضوية .

ولذلك وصف الأفكار بعدة صفات منها:

- **فيزيولوجية الفكرة**: وهي الفكرة المعبر عنها.
- بيولوجية الفكرة:وهي الفكرة المطبوعة ذات تركيبة جينية لا يمكن التخلص منها.
- **الفكرة الحية** : وهي الفكرة الأصيلة التي تملك مقومات العطاء المتجدد.
- **الفكرة الميتة** : والتي أصبحت لا تؤثر في الواقع .

- **الفكرة القاتلة** : وهي المميتة ، المستنبتة من إيديولوجيا ميتة أو آيلة إلى الموت.

ولقد كان هدف مالك – من هذا كله – واضحا هو : صياغة مشروع فكري سليم يبشر بـ " ميلاد مجتمع " تتفاعل فيه الفكرة الأصيلة (الثقافة والأفكار) مع فعالية السلوك لإنتاج " النهضة " المنشودة .

ولقد اعتمد مالك فكرة " الصراع الفكري " على مستويين :

- **المستوى الموضوعي** : لمواجهة الثقافة الغربية القاتلة (المميتة) .
- **المستوى الذاتي** : لمطاردة الجهل والثقافة " الأثرية" الميتة .

وفي هذا الإطار جاء كتابه " فكرة الأفرسيوية" ليحدد طبيعة الصراع مع الغرب داعيا إلى إنشاء تكتل أفرسيوي سنة **1955**م وإيقاف النتائج الكارثية على العالم الثالث بعد الحرب العالمية الثانية .

كما جاء كتاب " الصراع الفكري في البلاد المستعمرة" سنة 1956م لإبراز جدوى وأهمية تقديم الصراع الفكري على غيره من الصراعات الاقتصادية والسياسية ، ثم يأتي – بعد ذلك– ليجعل الاقتصاد محورا رئيسيا للصراع في عالم اليوم من خلال كتابه " المسلم في عالم الاقتصاد " سنة 1972م هدف من خلاله إلى نشر الوعي بالمعادلة الاقتصادية عبر محور طنجة – جاكرتا ، وأداة تفعيل هذه المعادلة " فكرة كمنولث إسلامي " ، وهذا الوعي متضمن في " دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين " والذي كان آخر كتبه فيما نعلم .

المبحث الثاني:
على خطى عبد الرحمن بن خلدون

يقول ابن نبي بأنه جاء ليواصل المشروع الخلدوني الذي توقف قبل ستة قرون ، جاء للبحث عن مواطن الخلل في المنظومة الإسلامية التاريخية :

* / تركيبة المجتمع المسلم .
* / طبيعة الذهنية الإسلامية .
* / طبيعة الوحي والرسالة والنبوة .

جاء ليحمل هم سقوط حضارة ، وليحمل هم حضور الاستعمار في الفراغ الإسلامي ، وليحمل هم الصراع داخل المنظومة الغربية الجديدة نفسها، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية .

فإذا كان ابن خلدون قد جاء بعلم العمران والاجتماع الحضري والريفي،فقد كان على ابن نبي أن يؤسس مناهج جديدة يقرأ من خلالها الحضارتين الإسلامية والغربية معا لتقديم إجابة عن إشكالية الحضارة –كما سنرى لاحقا– ولذلك وظف كل العلوم المتوفرة: علم النفس، الإبستمولوجيا ، الفيزياء ، الرياضيات ، الفلك ، علم الأديان المقارن، فلسفة التاريخ والحضارات ، نشوء الأمم والمجتمعات ... كأدوات لانطلاق " ميلاد مجتمع " جديد توازيها مراجعة وتنقيح ونقد وبناء شامل لمشروع المجتمع المنشود على محور طنجة – جاكرتا ، بعيدا عن الإسقاطات، لأنه كان – كما قلنا – يدرك الأصل والمرجعية والعمق الداخلي للإسلام ، ولذلك :

– قام بعملية تحليل التركيبة الداخلية لهذه المناهج قبل استغلالها .
– أبرز الجانب المنطقي في عملية السقوط الحضاري.
– وضع منهجا علميا أصيلا (الأدوات ، اللغة...) لتحليل التاريخ الإسلامي

إن ابن خلدون كتب مقدمته المشهورة للتأريخ لأفكاره عن بنية الحضارة والعمران أي لحصيلة الرؤى التاريخية والعمرانية والاجتماعية ... بينما انطلق مالك بن نبي ليعيد المجتمع إلى الحضارة ، إلى الإسلام ، إلى صناعة التاريخ ، معنى ذلك أن ابن خلدون جاء في نهاية حضارة ليفسر سقوطها ، بينما انطلق ابن نبي من حيث انتهى ابن خلدون ، لا ليكتب تاريخا أو ينشئ علما ولكن ليضع فكرا جديدا لصناعة حياة جديدة .

وهنا يمكن أن نلخص الوظيفة التاريخية للعالمين الجليلين في :

– كون ابن خلدون جاء ليكتب فيما مضى من حضارة وكان هدفه تاريخيا بالدرجة الأولى،إلى جانب أهداف أخرى .

– كون ابن نبي جاء ليكتب عما يجب أن يكون في المستقبل (شروط النهضة ، ميلاد مجتمع) ولذلك كانت رسالته أصعب– فيما نرى ، وإن كان الأمر يحتاج إلى بسط أكثر– لأنه حاول الإجابة عن السؤال الذي طرحه شكيب أرسلان آنذاك : أين الخلل ؟ لماذا تقدم الغرب وتأخر المسلمون ؟ ، من خلال وضع الحجر الأساس لتطبيب وتشريح جسد العالم الإسلامي بحثا عن مصدر أوجاعه ، والتي من بينها –للتمثيل لا الحصر – غياب الفعالية. ولذلك سعى إلى البحث عن كيفية تحريك البنية الداخلية للمجتمع لتصبح فاعلا وليس مفعولا به .

لقد وقف ابن نبي حياته لمعالجة قضايا أمته، حيث عمل في ميدان الفكر ولم يعمل في مجال اختصاصه كمهندس كهربائي . وقد تميز بإنتاج غزير نشر في سلسلة تحت عنوان "مشكلات الحضارة " ، بعضه بالفرنسية وبعضه مترجم إلى العربية و آخر كتبه بالعربية مباشرة .

وقد ركز على دور الإسلام في تحصين هوية الشعب من الابتلاع والتآكل ، وانتقد الأفكار السائدة في العالم الإسلامي واعتبرها خليطا من بقايا موروثة " ... ورأى أن الثقافة حين اتجهت إلى امتداح الماضي أصبحت أثرية لا يتجه فيها العمل الفكري إلى الأمام .

المبحث الثالث:
خلاصات واستنتاجات

من خلال قراءتنا لتراث ابن نبي الفكري ، يمكننا رسم إطار عام لتفكيره والوقوف عند أهم انشغالاته الكبرى مركزين على منطلقاته ومرجعيته الفكرية ووسائله التي تقصد التغيير الحضاري في معناه الشامل من خلال دراسته لواقع الاستعمار من جهة والقابلية له من جهة أخرى ، وهكذا يمكن حصر عدة خلاصات واستنتاجات أجملها فيما يلي :

1ـ أصالة الفكرة وبضاعة المنهج :

لا شك أن مالك بن نبي وقف حياته – كما قلت – لـ "الإصلاح" والتغيير من خلال الفكرة التي اعتبرها ثورة وتغييرا هادفا ، كما يظهر جليا بأنه كان ذا ثقافة واسعة تشمل الاقتصاد والسياسة والاجتماع لحمتها الدين ، متميزا بعمق التفكير ومنطقيته وواقعيته مع قوة الأسلوب والحجة .

وقد ساعده على ذلك ثقافته الغربية الواسعة مع ثقافته العربية الإسلامية المحتفظة بقوة العقيدة وسلامة التفكير . ويكفينا دليلا على ذلك أن نقول بأن مشروعه التغييري الحضاري كان ينبني على القاعدة العامة والأرضية الصلبة التي تؤسسها الآية الكريمة :

[إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم] (الرعد / 11) ؛ هذه الآية التي نكاد نجدها أونجد أصداءها في جل كتاباته .

يقول عنه الأستاذ عمر مسقاوي : " تنطلق أفكار ابن نبي لا لتضيف في المجتمع الإسلامي معرفة جديدة بالفقه أو علما مستخلصا من تجارب الحضارة الحديثة ، بل لتنظيم هذه المعارف في مفاهيم تربوية تسير بالإنسان خطوة متقدمة " ([46]) .

ويقول كذلك في الإطار نفسه : " الأستاذ مالك بن نبي يطرح الإسلام كملهم لقيمنا وقادر على استعادة دور الإنسان مبرءا من ثقل الحضارة الإمبراطورية ، وهو يرى أن الإسلام لا يقدم للعالم ككتاب (فقط)وإنما كواقع اجتماعي يسهم بشخصيته في بناء مصير الإنسانية " ([47]) .

إن فهم مالك للإسلام على هذا الشكل طبيعي إذا علمنا أن مؤلفاته في مجملها كانت مطبوعة بطابع عالم الاجتماع الذي يحاول معالجة الظواهر معالجة اجتماعية مع التحرر من نفوذ الثقافة الغربية التي كان متعمقا فيها ، وهذه الحالة نادرة في تاريخ الفكر الإسلامي المعاصر .

ولذلك نجد أن سلسلته : " مشكلات الحضارة " عبارة عن نداء يدعو إلى الفعالية ونبذ اللامبالاة وكل مظهر من مظاهر القابلية للاستعمار التي اجتاحت العالم الإسلامي لفترة طويلة ، عاملا على التحفيز على توظيف الطاقات والإمكانات والثروات في خدمة المستقبل باعتبارها بعدا يغيب في أغلب المبادرات الفكرية .

إن تفكيره المنهجي فتح أمام الحركة الإصلاحية الجزائرية – خصوصا – آفاقا جديدة وذلك عندما " أطل في باريس على العالم الغربي ولم يدخل لعبته...يرقبه بعين الناقد، يدرك محاسنه ويحس بأبعاد مساوئه"([48])،رغم انفتاحه عليه وتزعمه لتيار"الاستغراب".

---

[46] ذ. عمر مسقاوي : نظرات في الفكر الإسلامي ومالك بن نبي ، ص : 26 . ط 1 / 1979 ، تصوير 1986 دار الفكر ، سوريا

[47] نفسه ، ص : 47

[48] ذ. عمر مسقاوي ، : حول فكر مالك بن نبي ، ص : 26 .دار الفكر سوريا

ويقول عنه ذ.عبد العزيز الخالدي في مقدمة"شروط النهضة":"وابن نبي في الواقع ليس كاتبا محترفا أو عاملا في مكتب مكبا على أشياء خامدة من الورق والكلمات ،ولكنه رجل شعر في حياته الخاصة بمعنى الإنسان في صورتيه الخلقية والاجتماعية " ([49]) ، أي أنه كان يحاول أن يعيش الإسلام فكرا وسلوكا أو كنظرية اجتماعية تحرك العبقرية الإنسانية في شتى نواحيها لتحقيق رسالة التغيير . و لا يتأتى ذلك إلا بفهم الإسلام باعتباره الركيزة الأساسية لكل من يسعى ويتصدى للثورة والإصلاح في العالم الإسلامي ، لذلك دعا مالك ومارس عملية هذا الفهم من خلال القراءة المتجددة للإسلام وتراثه المنبثة في ثنايا كتبه والمتمثلة في إنشاء المسلم الفعال وليس القوال كما يقال .

2ـ التفكير الحضاري عند مالك بن نبي :

يعتبر مالك من المفكرين القلائل الذين عاشوا عن قرب ظروف الصراع مع الغرب وأدركوا خطر استيراد الفكر وإضاعة الطاقات هباء في المقاهي والصالونات الفكرية ، إنه من الذين اكتشفوا أن الاستعمار يسعى أولا إلى أن يجعل من الفرد خائنا للمجتمع الذي يعيش فيه فإن لم يستطع فإنه يحاول أن يحقق خيانة المجتمع لهذا الفرد على يد بعض الأشرار([50]).

إن الاستعمار – في نظره – لا يكتفي بالنهب والاستغلال وأشكال التدمير المادي والمعنوي ، وإنما يحطم قواعد السلوك والخلق والهوية ويستبدل بها مايؤدي إلى السقوط الأخلاقي كبوابة دائمة الانفتاح يمكنه أن يلجها متى شاء . وللنجاة ، يؤكد ابن نبي على الأفكار والعودة إلى الذات بكل خصوصياتها باعتبارها الحصن المنيع الذي يحمي الشخصية

---

[49] مالك بن نبي : شروط النهضة ، ص : 8 . ترجمة عبد الصبور شاهين / عمر مسقاوي – دار الفكر ،دون تاريخ.

[50] مالك بن نبي : الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، ص : 125 .ط 3، 1988 تصوير 1990 دار الفكر المعاصر لبنان / دار الفكر سوريا

المسلمة من سياسة الإدماج في الحضارة الغربية ، و السبيل الوحيد إلى الانتصار في عالم السياسة والاقتصاد والاجتماع ...

إن كل ما ذكرت يدخل في إطار الصراع الحضاري بصفة عامة بشتى أشكاله ، الحضارة التي عرفها مالك بكونها حماية للإنسان تضع بينه وبين الهمجية حاجزا ، إنها حركة شعب بأكمله استرشادا بأفكار واضحة ووصولا إلى غايات محددة ، لذلك دعا إلى التوقف عن تعليل النفس بالماضي والإقلاع عن الفوضى والارتجال بالسير على خطى ما سماه **نظرية الكل الاجتماعي** المنظم التي هي أساس تقدم المجتمع لأن " ميزانية التاريخ ليست رصيدا من الكلام بل كتل من النشاط الإيجابي والمادي، ومن الأفكار التي لها كثافة في الواقع ووزنه " ([51]). وفي غياب " نظرية الكل الاجتماعي " هذه ، فإن الفوضى " تشتت فعالية الفكر وتشرذم حركة البناء إلى فردانية قاتلة ،والمواجهة غير ممكنة إلا من موقع الركيزة الثورية الهامة : التنظيم " ([52])

3ـ النقد الذاتي سلوك حضاري والإنسان مفتاح الحضارة:

يتضح مما سبق ، حرصه على ضرورة النقد الذاتي باعتباره سلوكا حضاريا يستقيم به البناء ، ولعل خالص جلبي في كتابه "في النقد الذاتي " . وعبد الله فهد النفيسي في كتاب " أوراق في النقد الذاتي : رؤية مستقبلية للحركة الإسلامية " والأستاذ عمر عبيد حسنة في كتاب "مراجعات في الدعوة والحركة"– على سبيل المثال لا الحصر – لعلهم من الذين ولجوا هذا الميدان لتصحيح الأخطاء وتجاوز السلبيات التي تتخبط فيها الحركة الإسلامية وفكرها في هذا العصر .

وبالإضافة إلى النقد الذاتي ، اعتبر مالك الإنسان مفتاح الحضارة ، و الذي إذا كانت المذاهب الفكرية المعاصرة قد اهتمت بجانبه المادي فإن الإسلام قد كرمه ، أي

---

[51] مالك بن نبي : مشكلة الثقافة ، ص : 109 . ترجمة عبد الصبور شاهين ، تصوير 1989 دار الفكر سوريا

[52] د.أسعد السحمراني ،مالك بن نبي إصلاحيا ، ص : 175 .

ارتقى به فوق كل ما هو مادي و حدد له إطاره الحضاري في مجال الثقافة والأخلاق والاقتصاد وأطلق طاقته في كل مجال . ولقد اعتبر تربية الإنسان مربوطة ربطا جدليا بالثقافة وسلامة الفكرة النابعة من الواقع العقدي، لأن البيئة هي رحم القيم باعتبار الأصالة التربوية والثقافية تعبيرا عن الهوية المفقودة ورجوعا إلى الينابيع الصافية للأمة الإسلامية .

ولعل المتابعة الدقيقة لفكر مالك بن نبي ستكشف أن معالجته للتغيير الحضاري لم" تتم من خلال البحث في فلسفة العناصر : الأفكار – الأشخاص – الأشياء ، بل تمت في ضوء بحثه – المتشعب والخصب – عن حركة هذه العناصر " ([53]) في الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي ، بل إن التغيير الحضاري الذي ينشده مالك لن يكون إلا بتفاعل هذه العناصر الثلاثة مع الفكرة الدينية (الغيب) الأصيلة الفعالة في سياق البناء الحضاري كما يذهب إلى ذلك الدكتور علي القريشي.

إن الفكر التغييري في إطاره الحضاري الشامل كان غائبا على الدوام حتى عند الذين كانوا يدعون التقدمية والعلمية والموضوعية من خلال تيارات فكرية وسياسية داخل العالم الإسلامي و " ربما من المفارقة أن نذكر بأن الطرف الذي وصم دائما بأنه " تراثي " و " سلفي " ورجعي " هو وحده الذي كان قادرا على وضع تصور صحيح لمشكلة الحضارة . ولدى القارئ العربي والمسلم الآن عمل فكري رائع في تحليل الحضارة أنجزه كاتب إسلامي فريد هو مالك ابن نبي ، وقد أصبح الكل عيالا على محاولته الرائدة في فتح الطريق الأمثل لمناقشة مشكلة التخلف في العالم الإسلامي وفقدان الدور الحضاري، ورغم الإغفال لقيمة بنائه الفكري فإن دائرة الكتاب – من غير الإسلاميين الذين بدأوا يعترفون ويقتبسون من نصوص كتبه ويستلهمون روحها العام – هي في تزايد مستمر " ([54]) .

---

[53] مجلة الأمة القطرية ، ع : 69 ، ص : 28 . ماي 1986

[54] مجلة العالم ، ع : 348 ، ص : 50 . أكتوبر 1990

المبحث الرابع:
مفكرون على خطى مالك بن نبي

لقد كان لمنهجية ابن نبي صدى طيب في أوساط المثقفين الإسلاميين ، والذين اهتموا بعلم الاجتماع بصفة خاصة وعملية التغيير على وجه الخصوص ، فمثلا "إن إخضاع جودت سعيد التغيير الاجتماعي لمقاييس علمية قائمة على فكرة القانون أو السنة، عمل منسجم مع عمل مالك بن نبي لإخضاع الحضارة لعمليات حسابية تمكن من صياغتها في شكل القانون الرياضي... وليس من باب الصدف أن يكون المرحوم مالك قد كتب مقدمة الطبعة الأولى من كتاب جودت سعيد "حتى يغيروا ما أنفسهم"قبل رحيله،فقد استفاد جودت سعيد من المنهجية الجديدة التي أرسى مالك بن نبي أسسها . وتتكرر العودة إلى هذه المنهجية في الكتابات الإسلامية الجديدة كلما أحس الإسلاميون بالحاجة الماسة إلى القيام بعملية نقد ذاتي بناء ... ولذا نجد تجديدا وتوسعا في نقد العقلية السائدة من خلال إعادة توثيق الارتباط بالواقع والتأكيد على فكرة القانون"([55]) .

وفي هذا السياق يأتي كتاب " في النقد الذاتي " : ضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية " لخالص جلبي و كتابا الأمة " أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق " للدكتور أحمد محمد كنعان ودراسة في البناء الحضاري للدكتور محمود محمد سفر للتعبير عن هذا الهم البنائي للإنسان والحضارة . وفي اعتقادي ، إن فكر مالك يتصف بسمات مهمة ميزته عن كثير من المفكرين والباحثين في حقل الحضارة، لذلك يتعين إظهار بعض هذه السمات لتأكيد صحة الرأي الذي سبق أن أدرجته في المقدمة وهو ضرورة العودة إلى مالك وأهمية إعادة قراءة فكره وخاصة في مثل هذه الظروف التي تعرف صعودا متواصلا للمد الإسلامي والصحوة الإسلامية المباركة وحاجتها الملحة إلى تأصيل ثقافي ومنهجي مرجعي يضمن استمراريتها ويساعد على إعادة بناء الحضارة الضخم .

---

[55] نفسه ، ص : 50 .

المبحث الخامس:
مكونات القوة في المشروع الحضاري عند ابن نبي

إن الناظر في تراثه الفكري يمكنه رصد مجموعة من مكونـات القـوة في طرحـه الحضاري للإشكالات المجتمعية أجملها فيما يلي :

أـ التركيز على المشاكل الحيوية في العالم الإسلامي :

مثل مشكلات الحضارة والثقافة والنهـضة والاسـتعمار والتبعيـة والأفكـار والعلاقات الاجتماعية ... وهذه المشكلات " لم يبحثها مالك بن نبي بشكل عرضي أو جانبي أو محدود بل مثلت المرتكزات وأمهات الأفكار عنده ودرسها في جـل مؤلفاتـه ومقالاته القصيرة والطويلة واستفرغ جهـده الفكـري وطاقتـه العقليـة بدراسـتها وتحليلها".([56])

ب ـ تجاوز الحساسية الطائفية :

التي أعاقت مجموعة من المشاريع الفكرية والتغييرية عن الانتشار والتأثير، حيث إن الطائفية مشكلة لها مضاعفات خطيرة في تبديد الطاقات وتقوية النزاعات والحواجز أمام وحدة الأمة ومكوناتها العاملة ، هذه الحساسيات التي استطاعت التسرب إلى كثير من كتابات بعض المتصدين للعمل الإسلامي داخل قيادة بعض الحركات الإسلامية مما يجعلنا " نعطي قيمة لفكر ابن نبي حين يتجاوز مثل هذه المعضلة و لا تتلوث كتاباته بها مطلقا ، وهذا يجعلنا نعطي الصفة الحضارية لفكر ابن نبي " ([57]) . ولذلك كان فكره مقبولا على مستوى الساحة الإسلامية برمتها عند الشيعة والسنة على حد سواء . يقول ذ/عمر مسقاوي:(هكذا بدأ موسى الصدر يحتل منا على غير استئذان صدر المساحة

[56] مجلة العالم ، ع : 388 ، ص : 32 . يونيو 1991

[57] نفسه ، ص: 32 .انظر مثلا كتابه : "فكرة كومنولث إسلامي " الصفحات:25 وما بعدها

الفكرية التي أوسع لها مالك ابن نبي النطاق والرؤية. ولذا بدا لي منه قربى توثقت في إحدى محاضراته في مدينة طرابلس حين فاجأني يستشهد في حديثه عن مفاهيم عالم الغيب والشهادة بكتاب مالك بن نبي "الظاهرة القرآنية" الذي كتبه باللغة الفرنسية وقد ترجم الى العربية. تقدمت إليه معرفاً، وكان ذلك في العام **1966**، ولم يكن في ذلك الوقت قد عرف مالك بن نبي شخصيا.

(لقد) استدرجتني إلى لقائه المناسبات، وكان الحديث يستأثر بالمفكر حين فاجأني (الصدر) بقراءة كتبه (ابن نبي) جميعها.

... وفي إحدى زيارات مالك بن نبي الى لبنان في نهاية الستينيات أو بداية السبعينيات، أتيح لمالك أن يلتقي موسى الصدر وأن يحدثني مالك عن ذلك اللقاء الذي لم أكن طرفا فيه:

ولقد كان من شعاب ذلك اللقاء ان أسر إليه لظروف ذلك الزمن بدعوة سوف تأتيه لزيارة ايران ولقاء الحوزات العلمية فيها.

بيد أن بن نبي حمل إليّ من آفاق موسى الصدر ورؤيته لمسيرة الحضارة الاسلامية وافر التلاقي، وهكذا أخذ فكر بن نبي يتخذ له منحى في جلسات الشباب في الحوزات العلمية، وكلما التقيت بأحد العلماء خريجي تلك الحوزات، وجدتني في ذاكرته عبر كتب الاستاذ مالك بن نبي التي أشرفت على إخراجها جميعا باللغة العربية، لكن أكبر ما يمنحنا تواصلا بين الامام موسى الصدر وفكر مالك بن نبي هو الاحتفال التأبيني الذي أقامه المجلس الاعلى الاسلامي الشيعي برئاسة سماحة الامام الصدر عام 1973، في قصر الاونيسكو، وتحدث فيه سماحة الامام والمغفور له الامام محمد شمس الدين والمغفور له الدكتور عمر فروخ، بالاضافة إليّ، ثم كان الشاعر نجيب جمال الدين المعرف بين الخطباء يمنح الفواصل بينهم اتصالا، فيه من جذوة الامام دفء انتماء)(58) .

[58] عمر مسقاوي: مالك بن نبي في ذكرى الإمام موسى الصدر، جريدة السفير اللبنانية عدد26 غشت 2004

بل تعدى ذلك إلى الدول والعقائد والقارات، ولعل " فكرة الأفرسيوية " وفكرة كومنولث إسلامي " مما يشهد لذلك .

ج ـ التخصص في العمل الفكري :

إنه من الصعوبة بمكان تحديد مجال اختصاص مالك بن نبي ، إنك تكاد تجد اهتماماته منصبة في جل الاختصاصات من خلال كتاباته المتعددة المتعلقة بمشكلات الحضارة وتحليلها تارة من الناحية النفسية وأخرى من الناحية الاجتماعية ، مرة بتجزئة الأفكار وأخرى بتركيبها ... " إن الذي لا يعرف ابن نبي قد يتصور لأول وهلة أنه صاحب اختصاص في علم الاجتماع أو علم الأنثروبولوجية أو سوسيولوجيا المعرفة أو العلوم الإنسانية وقد لا يتوقع البعض حين يعرف أن اختصاصه الأكاديمي هو الهندسة الكهربائية " ([59]) .

إن هذا التقاطع في الاختصاص هو سبب من أسباب مكانته المتميزة وقوته في التبليغ والعمق والإقناع .

د ـ الفاعلية والحركية :

يعتبر فكره متميزا بالقابلية للاستمرارية والديناميكية والحركية في استقلالية شبه تامة عن الزمان والمكان ، والفكر الذي لا يحمل هذه الميزة لا يعمر طويلا وقد يموت بموت صاحبه ، والفكر الذي لا يحمل الإنسان المسؤولية ويبين له قانون الواجب وجدليته مع الحق ، يشك في قوته وصلابته وقدرته، ويعتبر فكرا لا مسؤولا يعطل طاقة الأمة ويمجد إبداعاتها وعطاءها في صوفية تاريخية غير مجدية .

هـ ـ غلبة فكر البناء على الهدم :

إن نظرة سريعة في فكر الحركات الإسلامية ومفكريها ومنظريها تجعلنا أمام ثلاثة أنواع من الأفكار :

---

[59] نفسه ، ص : 32 .

ـ فكرة الهدم : وهي الغالبة ، ولعل الظروف التي مرت بها هذه الحركات مثل الاستبداد السياسي والظلم والتعذيب والاستعمار ... لعل ذلك مما يبرر إنتاجا ضخما من الأفكار التي كانت تصارع هذه التحديات والمشاكل قصد هدمها والتخلص منها . ويمكن التمثيل على ذلك بعبد الرحمن الكواكبي وجمال الدين الأفغاني والشهيد سيد قطب والشهيد علي شريعتي ، إن فكر هؤلاء يتناسب كثيرا مع الثورة والنهوض والمقاومة.

ـ فكرة التوازن بين الهدم والبناء : ويمثلها أبو الأعلى المودودي الذي واكب فكره مرحلة ماقبل قيام دولة باكستان الإسلامية وما بعدها سنة **1947** ، حيث كان فكره في المرحلة الأولى منصبا في مجال الهدم وفي الثانية توجه نحو البناء .

ـ فكرة البناء : ويتميز مالك بن نبي في هذه النقطة بالذات حيث ركز على البناء أكثر من الهدم، وهذا ما دفعه إلى الانطلاق من الآية [إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم] قصد بناء يبدأ من الجذور والنفس الإنسانية ليصل إلى الحضارة ([60]) .

[60] نفسه ، ص : 32 .

المبحث السادس:
في مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

أعود مرة أخرى لفكرة " الحضارة " التي احتلت مكانة مركزية في تفكير ابن نبي حيث درسها من جميع جوانبها النفسية والوظيفية والتاريخية والتربوية باعتبارها ظاهرة كونية ، ويمكن تلخيص كل ذلك في كون مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية كما يقول ، وهذه ميزة تميز بها عن الآخرين الذين كانوا يجزئون مأساة الأمة الإسلامية حينما يتحدثون عن مسألة الأفول الحضاري ، فبعضهم ردها إلى ما هو سياسي وآخر إلى ما هو تربوي ... لكن ابن نبي رفض ما سماه بالمنطق " التذريري" ATOMISME منذ البداية ؛ فمنطق التجزيء في التعامل مع الإسلام وقضاياه أصاب النخبة المتغربة العلمانية ([61]) ؛ وحتى النخبة الإسلامية في كثير من الأحيان .

إنه من الصعب جدا فهم فكر ابن نبي دون التطرق إلى مفهومه للحضارة ومساهمته في دراستها :

1ـ من حيث الوظيفة :

عرف الحضارة بأنها جملة الشروط المادية والمعنوية التي تسمح للمجتمع أن يقدم لكل فرد من أعضائه الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه ... " ([62]) .

2ـ من حيث التركيب والمركب :

تطرق إلى الإنسان والتراب والوقت بالإضافة إلى الفكرة الدينية (الغيب) . . والغيب هو أحد الشروط الأساسية للإيمان والذي لا يمكن لأي حركة تاريخية أو حضارة

---

[61] منير شفيق : الإسلام في معركة الحضارة ، ص : 60 . ط 1 /1991 ،الناشر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان بيروت /لبنان –دار البراق للنشر / تونس

[62] مجلة رسالة الجهاد ، ع : 106 ، ص : 119 . يناير 1992

ترغب في البقاء والامتداد بدونه ، ويعتمده مالك بن نبي باعتبار أن الإيمان هو المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية ، وأن الفكرة الدينية هي المركب الحضاري الذي يجمع أجزاء الحضارة (الانسان ،التراب، الوقت) فيبين في كتابه شروط النهضة أن هذا المركب موجود فعلا وهو (الفكرة الدينية) التي رافقت تركيب الحضارة خلال التاريخ، وأن العناصر الثلاثة التي تؤلف الحضارة لا تصنع لوحدها ناتجا حضاريا ، إذ لابد من... المركب الحضاري ([63]).

ويؤكد في كتابيه (شروط النهضة) و (ميلاد مجتمع) على أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة ، فحينما تدخل كمركب(**catalyseur**) في التركيب البيولوجي لإحدى الحضارات ،تبعث في الأفراد الحركة والنشاط ، ويواصل المجتمع الذي أبرزته الفكرة الدينية إلى النور تطوره، وتكتمل سبله وروابطه الداخلية ([64]).

3ـ من حيث الوجهة التاريخية :

تحدث عن فكرة الأطوار ([65]) التي جاء بها ابن خلدون منذ عدة قرون ، ثم جاء ابن نبي لينطلق مما راكمه نهج ابن خلدون في هذا المجال ، ورغم أن ابن خلدون لم يتكلم إلا في حدود العصبية الأسرية أو الدولة تحديدا –بالإضافة إلى الدين –فإن ابن نبي نقل ذلك إلى مجال أرحب وأوسع هو الحضارة المشروطة في جانبها الاجتماعي بلعننا للقابلية للاستعمار قبل لعن الاستعمار ، حتى أصبح جديرا بلقب " فيلسوف الحضارة في القرن العشرين " ([66]).

---

[63] مائدة المؤمن : حركة التاريخ والفعل الحضاري بين المدارس الوضعية والمدرسة الإسلامية مجلة المستقبلية،عدد 2 ص:97

[64] نفسه ص108

[65] بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ص : 44 . ترجمة بسام بركة / أحمد شعبو ط 1/ 1988 دار الفكر سوريا

[66] د. عبد اللطيف عباده : صفحات مشرقة ، ص : 31

لقد وضع مالك بن نبي مخططا للحضارة مثله في ثلاثة أدوار:

ـ طور التكون والنمو:

وهو الدور الأول ، وفيه تكون شبكة العلاقات الاجتماعية في أكثف حالاتها ، هذه الكثافة التي يعبر عنها قوله تعالى :(كأنهم بنيان مرصوص) وهذا هو العصر الذهبي..وهذه هي الحركة الديناميكية التي يدان فيها كل تقاعس كما في المجتمع الإسلامي الأول من خلال إدانة (الثلاثة الذين خلفوا). وأما قوله تعالى :(يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) فيبين أهمية المثل الأعلى الحقيقي ...يعني السير المستمر بالمعاناة والمجاهدة–نحو الله– لأن هذا السير ليس سيرا اعتياديا ، بل هو سير ارتقائي ، وتصاعد وتكامل([67]).

ـ طور الامتداد الحضاري:

إذا دب الضعف في المحتوى الداخلي لإنسان العالم الإسلامي ، وقل الارتباط بالغيب وبدأ التثاقل إلى الأرض شيئا فشيئا ، هنا يبدأ الامتداد العادي دون الارتقائي ، وهذا ما بينه مالك بن نبي في الدور الثاني من المخطط الذي وضعه لدورة الحضارة أي دور الامتداد بفعل الدفعة الأولى بما تملكه من قوة في محتواها الداخلي الذي يحافظ على درجة النمو بدون صعود ، إذ إن شبكة العلاقات الاجتماعية تكون في أكثر حالاتها سعة وامتدادا ،فلم تعد صاعدة لما في داخلها من نقص وشوائب وصدمة لنظام الأفعال المنعكسة عند الفرد ، وقد مثلت هذا الانكسار (صدمة صفين) التي شلت حركة الفرد وتصرفه بكل طاقاته الحيوية (68) .

ـ طور الغريزة : انتهاء الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية:

---

[67] مائدة المؤمن : حركة التاريخ والفعل الحضاري بين المدارس الوضعية والمدرسة الإسلامية مجلة المستقبلية،عدد 2 ص:97

[68] نفسه ص:99 (والكلام لـ:صائب عبد الحميد،علم التاريخ ومناهج المؤرخين ص52)

أثناء مواصلة التاريخ سيره، نرى هذا التطور يستمر في نفسية الفرد ،وفي البنية الأخلاقية للمجتمع الذي يكف عن تعديل سلوك الأفراد.وبقدر ما تتحرر هذه النزعة من قيودها في المجتمع، يكون التحرر الأخلاقي الذي يمارسه الفرد في أفعاله الخاصة شيئا فشيئا.وعندما يبلغ هذا التحرر تمامه يبدأ الطور الثالث من أطوار الحضارة،طور الغريزة التي تكشف عن وجهها تماما.وهنا تنتهي الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية التي تصبح عاجزة عن القيام بمهمتها تماما في مجتمع منحل،قد دخل نهائيا في ليل التأريخ وبذلك تتم دورة الحضارة.

فالإنسان المسلوب الحضارة لم يعد قابلا لإنجاز (عمل محضر œuvre civilisatrice) إلا إذا تغير هو عن جذوره الأساسية (69).

" إن الطرح الحضاري للأفكار الذي فجره مالك بن نبي في واقعنا المعاصر قد انطلق من دراسة الواقع التاريخي والحضاري للإسلام وهو يعد بحق امتدادا فكريا لحقل الدراسات الإسلامية الأصولية حول فقه الحضارة " (70) . مبرزا – هذا الطرح – أن نقل المفاهيم الغربية إلى العالم الإسلامي لا يحقق الاستقلال الاقتصادي والسياسي بل يكرسه ويؤصله ويجذره ، ولهذا فإن التميز وفك التبعية هما الشرطان الأولان لبناء الحضارة .

إن لفكره الحضاري محددات يتميز بها ويكاد ينفرد بها ، " ولنتذكر هذه المحددات بصورة موجزة وهي : العمق والشمول والالتزام بقواعد التطور التاريخي ثم التحليل والتركيب واستخدام نظريات علم النفس والاجتماع"(71) كما يقول الأستاذ إبراهيم بيومي غانم .

---

[69] نفسه ص:108 .

[70] رسالة الجهاد ، ع : 94 ، ص : 123 .دجنبر 1990

[71] مجلة منبر الشرق (المصرية) ص : 115 .عدد 3 / 1992

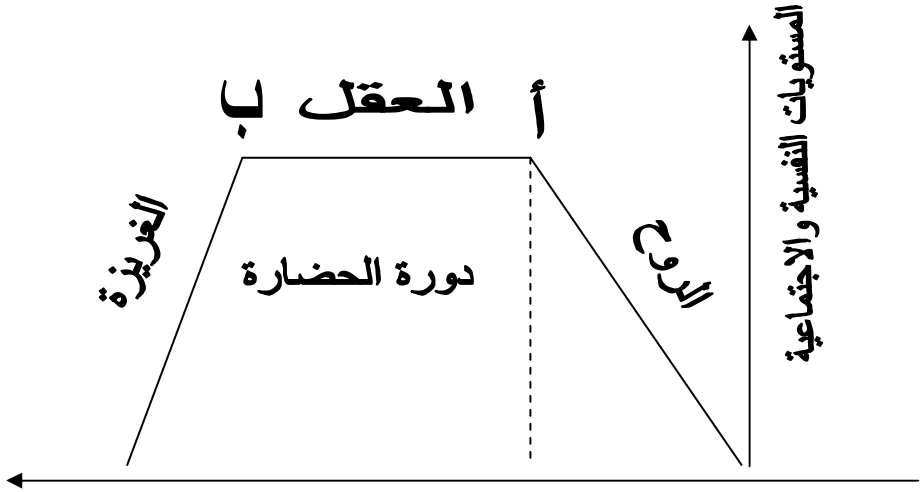
المستويات النفسية والاجتماعية
أ العقل ب
الغريزة
دورة الحضارة
الروح

المبحث السابع:
ابن نبي (مفسرا)

وقبل الانتهاء من هذا المبحث تجدر الإشارة إلى بعض ما يتعلق بابن نبي باعتباره (مفسرا) للقرآن الكريم من خلال كتاباته وعلى رأسها "الظاهرة القرآنية " .

إنه سلفي حقيقي ينطلق من القرآن والسنة وسير وأعمال السلف الصالح ، واهتمامه بالقرآن دفعه إلى تأليف " الظاهرة القرآنية " كما قلت ، محدثا ثورة منهجية في مجال التفسير ومزودا المثقف المسلم المحتك بالثقافة الغربية بأسس ومرتكزات راسخة تسمح له بتأصيل ناضج وواع للرسالة الإسلامية ، جاء ثورة على التفسير الكلاسيكي المتداول في الأوساط المثقفة .

و لقد عمد ابن نبي إلى " تقييم مناهج المفسرين التي لم ترضه في معظمها لأنها لم تنفذ إلى القرآن الذي يحرك الحياة والذي يمس الطبيعة والضمير الإنسانيين مباشرة والذي يمس مجال حياة الإنسان وجوانب فكره ومناحي سلوكه " (72) ، معتبرا التفاسير الكلاسيكية دائرة معارف ضخمة خالية من كل الاهتمامات المنهجية التي كانت تشغل المدارس العربية الإسلامية ذات النزعة الديكارتية .

وهذه مشكلة للتفسير – في نظره – والمشكلة الثانية هي مجموع الأفكار السائدة التي تشكل أرضية الثقافة الشعبية بما فيها من خرافات وأساطير ولهذا " يقترح علينا مالك بن نبي ضرورة إيجاد مذهب اجتماعي في التفسير لا يعزل الإسلام " عن قضايا المجتمع مبينا نماذج كثيرة لهذا التفسير تستند إلى علم الاجتماع أكثر مما تستند إلى علم أصول الفقه ، إنه لم يهتم بتفسير آيات الأحكام باعتبارها من اختصاص الفقهاء واهتم فقط

---

[72] صفحات مشرقة ،م.س ، ص : 76 – 77 – 78 ،ويمكن الرجوع لكتابه (الظاهرة القرآنية) للاطلاع عن قرب على بعض اجتهاداته التفسيرية (انظر الصفحات 53 وما بعدها مثلا..).

بالآيات المتعلقة بالاجتماع والسياسة أي أن تفسيره كان ذا منحى اجتماعي سياسي لا أصولي .

إن الجديد الذي أتى به في مجال التفسير " هو أنه وسع معاني القرآن لتشمل مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ... " .

وأعرض لنموذجين من تفسيراته :

1 – يقول الله تعالى في سورة الرعد الآية :11 " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " ، إن هذه الآية في نظره هي محور كل تحول حضاري وتاريخي إنها " النص المبدئي للتاريخ التكويني " للحضارة التي تنطلق من النفس البشرية البانية .

2 – وقوله تعالى في سورة البقرة الآية 142 : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) بعدما يصف الحضارة الغربية المشرفة على الهلاك لفقدانها مبررات الاستمرار لنفاد رصيدها الثقافي والروحي وبالتالي الاجتماعي والموضوعي ، يصل إلى أن المتلهف والمتعطش للخلاص " سيجد ما يروي غلته في الإسلام وإذا أراد المسلم أن يقوم بدور الري يعني أن يقدم المبررات الجديدة التي تنتظرها الأرواح التي تتألم لفراغها وحيرتها وتيهها " ([73]) فعليه بالتبشير بالأفكار الإسلامية وجعلها أساسا بانيا في حياة الإنسان، وهذه هي الشهادة على الناس .إن الآية توحي للمسلمين بأصالة موقعهم في الحياة من خلال الدور الرسالي والقيادي للبشرية إلى الأهداف الكبرى للإسلام .فإذا كان الرسول (ص) شهيدا على المسلمين من خلال مسؤوليته الرسالية ، فإن المسلمين – دوما – عليهم أن يتحركوا في الحياة من موقع الرسالة – كذلك – ليكونوا شهداء على الناس في حركتهم أي ،إن الناس – بحكم الآية – أصبحوا في نطاق مسؤولية المسلمين الرساليين .

[73] صفحات مشرقة ،م.س ، ص : 81

المبحث الثاني:
وقفة نقدية

إن المكانة المتميزة التي وصل إليها مالك بن نبي واحتلها في ساحة الفكر الإسلامي لا يجب أن تمنعنا من تسجيل بعض السقطات والهفوات ، وهذا أمر طبيعي لأنه لا كمال إلا لله ولا عصمة إلا للأنبياء .

وفيما يلي أذكر بعض ما أوخذ عليه للتمثيل فقط لأن المقام لا يسمح بدراسة نقدية لأعماله كلها :

فما لك يريد " أن يشكل ثقافة أفروسيوية تستلهم التراث الإسلامي الهندي القديم، ويقدم الحضارة الغربية رائدا وشاهدا على هذه الإمكانية . لكن تاريخ تكوين الثقافات يناقض هذا المذهب ، إضافة إلى استحالة التوحيد في هذا المثال ويمكن أن نوضح ذلك بما يلي :

لم تقم الحضارة الغربية على هيكل أخلاق المسيح – كما يقول مالك – بل قامت على أنقاضه، ولم تنبثق من هيكل مختلط من الكاثوليكية والبروتيستانية واليهودية ، وإنما انبثق من مصارعتها ومنازعتها ، وما مأساة الصراع بين العلم والدين بغائبة عن أذهاننا ، أو قل : لم تتشكل الحضارة الغربية من ائتلاف المذاهب المسيحية وإنما تشكلت من مناقضة مفاهيمها ومعاداة قيمها الروحية وخير دليل على ذلك ضيق الحيز الذي تركته الحضارة الغربية لها"(74).

لاشك أنه من الصعب بل من المستحيل إمكانية استلهام التراث الهندوسي من طرف المسلم نظرا لوجود فروق أساسية في النظرة إلى مجالات : الكون والحياة والإنسان ، وبالتالي فإن فكرة الأفرسيوية كانت تحمل في طياتها كثيرا من نقاط الضعف بل من

[74] غازي التوبة : الفكر الإسلامي المعاصر ، ص : 61 .ط 3 / 1977 – دار القلم بيروت لبنان

مسببات موتها ، وهذا ما حصل فعلا واعترف به مالك في مقدمته للطبعة الثانية لكتاب " فكرة الأفرسيوية " .

كما أسجل إعجابه الشديد بالاشتراكية وبعض القيادات اليسارية في العالم مثل" فيدل كاسترو " "وغيفارا "والتجارب الشيوعية في الاتحاد السوفياتي البائد والصين وكوبا ، بل أسجل إعجابه الشديد بتجربة جمال عبد الناصر حين يقول : " حيث نرى نهضة كبرى يرفع رايتها زعيم كريم هو الرئيس جمال عبد الناصر " (75) لكن مع ذلك أسجل – كذلك وللإنصاف والموضوعية العلمية – استدراكه بل وتراجعه عن كثير من الأفكار (76) في كتاباته المتأخرة وخاصة " المسلم في عالم الاقتصاد".

وبذلك أخلص وأؤكد على ضرورة مراعاة الزمان والإلمام الكلي بفكره ووضعه في إطار الصراع الدائر آنذاك ، المتطور والمستمر والمراحل التي قطعها في مجال الفكر والسياسة باعتبار التغير والتطور وعدم الثبات في المجال الفكري ، وهذا ما أكد عليه هو نفسه غير ما مرة في ثنايا كتبه .

---

[75] مالك بن نبي : تأملات ص : 153 . ط 3/ 1977 دار الفكر سوريا

[76] مثل قوله : فكرة القومية العربية لا تحل المشكلة " في وصيته المنشورة في كتاب " صفحات مشرقة ، ص : 145

خـــاتـمـــــة

لقد كان ابن نبي شاهد عصره عن جدارة واستحقاق . فنعم الشاهد الذي يقول: " إذا أراد المسلم أن يسد الفراغ في النفوس المتعطشة ، النفوس المنتظرة للمبررات الجديدة فيجب أولا أن يرفع مستواه إلى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك إلى قداسة الوجود ، إلى ربانية الوجود ، ولا قداسة لهذا الوجود إلا بوجود الله ، والمسلم إذا أتى بهذا لا بلسانه ولا بشطحاته ... وإنما كإنسان معاصر للناس شاهد عليهم بالتقوى والورع ، بنزاهة الشاهد الصادق ، الصادق الخبير ، الواعي لقيمة شهادته ... " (77) .

ولقد كان نزيها في شهادته ، حيث كان لا يعرف المجاملة والمصانعة عندما وقف ضد الفكر المزيف في الجزائر ، وضد " البوليتك " التي تخلط الممكن بالمستحيل ، بل وضد الحركة الإصلاحية أحيانا عندما لم تستطع ترجمة فكرة الوظيفة الاجتماعية للإسلام على أرض الواقع .

وإنني إذ أقوم بهذا العرض المتواضع ، أتمنى أن أكون قد قدمت بعضا مما يجب تجاه هذا المفكر الفذ ، وقدمت ــ كذلك ــ شيئا جديرا بالاهتمام إلى الفئة المؤمنة ، إلى الذين يبحثون عن الطريق مخلصين جادين في سبيل العزة لأنفسهم وأمتهم ، حيث لا عزة ولا علو إلا بالإيمان ، ولا فوز إلا للمتقين ولا فلاح إلا للمؤمنين الصادقين ، وحيث كل تجارة بائرة " كاسدة " مفلسة إلا تجارة الله الغالية .

أدعو الله أن يشملنا جميعا برضاه ويمن علينا بأن نكون من الذين قال فيهم : (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين). والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل .

فاس في 20يونيو 2005

---

77 دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن 20 : مالك بن نبي، ص 39: تصوير 1989 دار الفكر سوريا

فهرست

مقدمة : في دواعي العودة إلى مالك بن نبي رحمه الله في ذكراه المائوية ؟.....

الفصل الأول: المفكر والمشروع

المبحث الأول: محطات بارزة في حياة مالك بن نبي

المبحث الثاني: المشروع النابي (نسبة إلى ابن نبي): رؤية عامة

الفصل الثاني: الحركة الإصلاحية في ميزان مالك بن نبي

المبحث الأول: في أجواء نسبة الفكرة الإصلاحية إلى الجزائر

المبحث الثاني: مرجعية الإصلاح وفلسفته

المبحث الثالث: وقفات نقدية للحركة الإصلاحية

1- استبداد الألفاظ بالأفكار

2- افتقاد المنهج العلمي

3- من الزوايا الطرقية إلى الزوايا السياسية

4- الدروشة الجديدة تبيع أوراق الانتخاب بدل الحروز والتمائم

5- ابن باديس مصلح مستنير ... ولكن

6- الحركة الإصلاحية: ظلت أداة للتجديد وليس موضوعا للتجدد

7- معركة الإصلاح بين تيارين

الفصل الثالث: أصالة الفكرة وفعالية المنهج

المبحث الأول: بين الأصالة والفعالية تنخلق شروط النهضة

المبحث الثاني: على خطى عبد الرحمن بن خلدون

المبحث الثالث: خلاصات واستنتاجات:

1- أصالة الفكرة ونجاعة المنهج :

2- التفكير الحضاري عند مالك بن نبي :

3- النقد الذاتي سلوك حضاري والإنسان مفتاح الحضارة

المبحث الرابع: مفكرون على خطى مالك بن نبي

المبحث الخامس: مكونات القوة في الطرح الحضاري عند مالك بن نبي

أ- التركيز على المشاكل الحيوية في العالم الإسلامي

ب – تجاوز الحساسية الطائفية

ج – التخصص في العمل الفكري

د – الفاعلية والحركية

المبحث السادس: في مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي

1- " من حيث الوظيفة

2- من حيث التركيب والمركب

3- من حيث الوجهة التاريخية

-طور التكون والنمو

-طور الامتداد الحضاري

-طور الغريزة : انتهاء الوظيفة الاجتماعية للفكرة الدينية

المبحث السابع: ابن نبي (مفسرا)

المبحث الثامن : وقفة نقدية

خاتمة.....

جمعية النبراس الثقافية
وجدة / المغرب

الذكرى المئوية للمفكر
مالك بن نبي (1905-2005)

تنظم

ندوة دولية في موضوع

مالك بن نبي : مفكر شاهد ومشروع متجدد

أيام : 13/14/15 نونبر 2005

الورقة التمهيدية:

تحل بنا هذه السنة الذكرى المئوية لميلاد المفكر الكبير مالك بن نبي رحمه الله، والعالم الإسلامي يعيش حالة استضعاف قاتلة، وصراعا فكريا غابت عنه الأفكار المطبوعة على حد تعبير الراحل، وحضرت الأفكار الموضوعة والميتة. حالة حاضر أشبه بحالة الماضي الذي ولد فيه المفكر مالك. فلأننا لم نتمكن من تحديد مرحلة ما بعد الاستعمار واستثمار شروطها لخلق وجهة جديدة للعالم الإسلامي والتأسيس لميلاد مجتمع جديد، سقطنا مرة أخرى في حالة الاحتلال والقابلية للاستعمار دون وجود أدنى مشروع فكري متكامل في الساحة يحقق شروط النهضة ويحل مشكلات الحضارة، انطلاقا من فهم مشكلة الثقافة واستحضار الاختيار الثقافي في كل بناء سياسي.

ويبقى المفكر مالك بن نبي شاهدا على عصره، ويبقى مشروعه الحضاري الناضج قابلا للتجدد في واقعنا وملء فراغه والتأسيس لنهضة جديدة لعالمنا الإسلامي تنطلق من مقدمات الظاهرة القرآنية وتتأسس على مساحة الفكر الحي لتقارب مختلف مشكلات الحضارة في شموليتها، ومن ضمنها مشكلتنا في العالم الإسلامي.

فالمثقف ابن نبي رغم تفكيره في زحمة الاحتلال والاستعمار والفراغ الوحشي المتعصب، فإن أفكاره خرجت واعية راشدة، ومشروعه اكتمل ضمن رؤية شمولية لا تبشر بالنهايات ولا بصراع الحضارات، وخطابه نضج أصيلا ذاتيا، رغم منهجيته العلمية المعاصرة.

في هذا الإطار تأتي أشغال هذه الندوة الدولية استحضارا للإنسان المتعبد، والمفكر الشاهد، والمشروع المتجدد، وفق المحاور التالية :

المحور الأول : شهادات

- الدكتور عبد السلام الهراس
- الأستاذ عمر مسقاوي
- الأستاذة رحمة مالك بن نبي

المحور الثاني : المفكر الشاهد

- مالك بن نبي: المفكر الفيلسوف
- المنهج الحضاري عند مالك بن نبي
- مرجعية الوحي في فكر مالك بن نبي

المحور الثالث : مالك بن نبي والمشروع المتجدد

- الوحدة والتجزئة والاستعمار في تراث مالك بن نبي
- الصراع الفكري وظاهرة الغرب : مالك مستغربا
- المرأة والأسرة في فكر ابن نبي

الختام والتوصيات